السكير

السكير (رواية)

إميل زولا

تقديم ومراجعة: خالد سليمان

الطبعة: ٢٠٢٣

العربية للاعلام والفنون والدراسات الانسانية والنشر

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر - الهرم – الجيزة - مصر
هاتف: ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

http://www.azhabooks.com

E-mail: info@azhabooks.com

بطاقة فهرسة أثناء النشر

إميل زولا. – تقديم ومراجعة: خالد سليمان – السكير

– الجيزة – أزهى، ٢٠٢٢

١٩٧ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٧ – ٦ – ٨٦٤٦٤ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٧٠٩٥ / ٢٠٢٣

إميل زولا

السكير

رواية

تقديم ومراجعة

خالد سليمان

تقديم

السكير.. أول رواية فرنسية لا تكذب على الشعب

"ليس الفنان شيئًا بدون الموهبة، ولكن الموهبة ذاتها لا تعني أي شيء بدون العمل الجاد".. هكذا تحدث الروائي الفرنسي الشهير إميل زولا، وهو رائد الاتجاه الذى أطلق عليه النقاد اسم "الواقعية الطبيعية الفرنسية"، ومن المعروف عن زولا أنه في مجمل إبداعه الروائي يجعل شخصياته أسرى لفكرة تتسلط عليهم، بحيث لا يلاحظون ما يدور حولهم، فينتهي بهم الأمر إلى التصادم والوقوع في الكوارث، لأنهم يسيرون في حياتهم بدافع من أهوائهم، يجعل حركتهم في خطوط متوازية كقضبان السكك الحديدية.

من ذلك الكاتب؟

هو إميل فرانسوا زولا المولود في ثاني أيام شهر إبريل ١٨٤٠ بمدينة باريس، ينحدر والده فرانسوا من أصول إيطالية وفرنسية مشتركة، أما والدته فهي إميلي أيبرت، وقد انتقلت أسرته من باريس إلى إحدى المدن في جنوب شرق فرنسا، عندما كان زولا في الثالثة من عمره، وعاشت هناك إلى أن توفي والده في عام ١٨٤٧ فتولت والدته رعايته، وفي عام ١٨٥٨ عادت الأسرة مرة ثانية إلى باريس، وهناك تعرف زولا على صديقه الرسام بول سيزان، وبدأ في الاتجاه للرومانسية.

ولم يستطع زولا إكمال دراسته في كلية سان لوي وغادرها عام ١٨٦٠، وكانت والدته تأمل أن يصبح ابنها محاميًا إلا أن ابنها فشل في امتحان

البكالوريا، فخاب أملها فيه؛ لأنه لم يحصل على شهادة جامعية تؤهله للعمل بوظيفة جيدة، فعمل لفترة في وظيفة كاتب في إحدى شركات النقل البحري، ثم تركها ليعمل في إدارة المبيعات في دار النشر "هاشييت"، وفي تلك الفترة تفجرت موهبته الأدبية، وبدأ الكتابة في مجالي الأدب والفن في إحدى الصحف الفرنسية.

وقد أراد إميل زولا أن يعكس حالة المجتمع العلمي أو الصناعي في عصره، فجاءت رواياته وكأنها دراسات في التاريخ الاجتماعي للعائلات الفرنسية في ذلك العصر.

وكان للبيئة والوسط الاجتماعي أعظم تأثير على شخصيات رواياته، فقد أراد أن يدرس التحولات التي طرأت على هؤلاء الأشخاص عبر مرور السنين، وهكذا درس زولا من خلال رواياته أخلاق عصره وعاداته، من خلال دراسته لعائلة فرنسية معينة، وقد تمكن إميل زولا من دراسة عدة أوساط اجتماعية لا وسطًا واحدًا، وبالرغم من أنه قام بالتركيز على حياة الطبقة البورجوازية في روايات عديدة، إلا أنه درس أيضًا حالة البروليتاريا أو العمال المسحوقين من قبل هذه البورجوازية.

وقد شارك زولا في "مؤتمر فرنسا العملي" الذي انعقد بمدينة أكس لمناقشة فن الرواية وتاريخها، ووجد فيه زولا فرصة لعرض أفكاره، فأرسل دراسة إلى المؤتمر خلص فيها إلى أن الفن الروائي باعتباره إنتاجًا ذهنيًّا يترجم وسيلة الحياة لمختلف المجتمعات البشرية.

وفي الدراسة نفسها استعرض تاريخ الرواية قبل أن يتوقف عند بلزاك

قائلا: "لو أني طلبت من بلزاك في حال حياته أن يحدد لي معنى الرواية لرد علي دون شك قائلًا: الرواية هي رسالة في تشريح الطبائع والأخلاق، وتجميع لأحداث البشرية، وفلسفة تجريبية للأهواء، هدفها وصف حقيقة الناس والطبيعة".

هكذا قام زولا بتعريف الرواية وفقًا لفهمه الخاص لطبيعتها ولدورها، كما عبر في ذات الكلمة عن اقتناعه بمذهب الحتمية وأهميته في دراسة الواقع الاجتماعي، وكتب وفقًا لهذه القناعة روايتين، نشر أولاهما في سنة ١٨٦٧ بعنوان "تريز راكان"، أما الثانية وهي "مادلين فيرا" فقد نشرها في العام التالي، ويمكن ربط الروايتين بعمله الضخم ذو العشرين جزءًا "أسرة روجون ماكار"، فالأبطال في الروايتين "أناس مثقلون بالرواسب الوراثية، ويتطورون وفقًا لتأثير البيئة".

السكير

ظهر زولا في عصر ازدهرت فيه العلوم الطبيعية، حيث قام الباحثون بالإقبال على دراسة الحياة وتسجيل ظواهرها وإجراء التجارب وتدوين النتائج والملاحظات، فرفضوا الخيال، وتمسكوا بالحقائق الملموسة، وكما تمسك الباحثين والعلماء بالحقائق الطبيعية الثابتة، فعل الأدباء مثلهم فابتعدوا عن الخيال والشعر، واتجهوا نحو الحقائق والطبيعة والبيئة التي يحياها الإنسان، ويتأثر بها ويؤثر فيها، ومن هنا اقتنع زولا تمام الإقتناع بأهمية بناء الرواية وفقًا لأسس ومبادئ التفكير العلمي، مع الاعتماد على الوصف الحقيقي والدقيق للمجتمع والواقع، فقد كان يرى أن من واجب الرواية أن

تدرس الطباع الإنسانية والتكيفات العميقة الأثر للعضوية البشرية تحت ضغوط البيئة والأحداث.

ووفق هذا التصور قام بتأليف موسوعته الروائية "روجون ماكار" التي صدرت في عشرين جزءًا يمثل كل منها رواية منفصلة، وصدر آخر أجزائها في عام ١٨٦٩، وظن القراء يومها أن معين إبداعه قد نضب، وأنه لم يعد لديه ما يمكن أن يقدمه، وأنه لن يصدر عملًا جديدًا، لكن زولا فاجأ الأوساط الأدبية الفرنسية بعد عام واحد بروايته "السكير" التي طرحها اليوم، وإتاحتها لقراء الأدب الرفيع.

وكان زولا قد نشر رواية "السكير" على حلقات في إحدى الصحف الفرنسية، ولاقت هجومًا شديدًا من الأوساط الأدبية والدينية على السواء، فرد الروائي على مهاجميه بمقال جاء فيه "بعد أن انتهيت من الأجزاء العشرين المكونة لروجون – ماكار بدأت في كتابة "السكير"، وهي رواية جاءت في وقتها، وقد كتبتها، كما سأكتب روايات أخرى بعدها، دون أن أحيد قيد أنملة عن الخط المستقيم الذي رسمته لنفسي، فما يشكل قوتي أنني جعلت لنفسي ككاتب هدفًا لا أحيد عنه، وهنا أجد من الضروري بالنسبة لي ككاتب يواجه مثل هذا الهجوم الشرس أن أوضح _ وعبر سطور قلائل _ هدفي من كتابة هذه الرواية، وأن أشرح مقاصدي ككاتب. لقد أردت أن أصور فيها الانحطاط المشئوم الذي تعيش فيه عائلة من العمال تسعى بين ضواحينا الموبوءة، ففي نهاية مسار السكر والتكاسل، يوجد ارتخاء للروابط العائلية، ويوجد فساد ناجم عن الاختلاط غير المنظم، والنسيان الذي يتصاعد تدريجيًّا للعواطف الفاضلة النبيلة، وفي النهاية ثمة عار وموت".

وفي نفس المقالة يصف زولا روايته السكير (توجد ترجمات عربية عديدة لها بعضها باسم السكير، وبعضها باسم الحانة) بأنها أكثر كتبه ورواياته عفة، وأن الدور الذي يؤمن به ككاتب يحتم عليه أن يضع يده على مواطن الجراح الرهيبة في جسد المجتمع، وهو يدرك أن الضغط على موضع الجرح يسبب آلامًا شديدة للجريح، لكن ذلك دور لا بد من القيام به، حتى ينتبه الجريح لحقيقة وضعه، وفي هذا الشأن يقول الكاتب ما نصه:

"أحيانًا قد تثير الكلمات الغضب، وكلماتي فعلت ذلك، فجريمتي تكمن في أنني أمتلك من الفضول الأدبي قدرًا كبيرًا، هذا القدر يدفعني إلى أن ألتقط لغة الشعب الذي أنتمي إليه، وأسكبها في قالب متقن الصنع، نعم؛ فالشكل الفني الذي اتخذته لروايتي واللغة التي كتبتها بها يمثلان معًا جريمتي الكبرى".

ويواصل الكاتب شرح دوافعه من كتابة الرواية، وكأنه محام في مرافعة دفاع عن متهم ماثل في قفص المحاكمة:

"ومع ذلك فأنا لا أدافع عن نفسي، عملي سيدافع عني، إنه عمل يتعلق بالحقيقة، فرواية السكير أول رواية فرنسية لا تكذب على الشعب، وفيها رائحة الشعب، ولا يجب أن نستنتج منها أن الشعب بأكمله سيئ، فهؤلاء الأشخاص الذين تقدمهم الرواية ليسوا سيئين، وإنما هم جهلة، أفسدهم محيط عملهم شديد القسوة، و الشقاء الذي يعيشون فيه، وهنا أقول لمن كالوا لي الاتهامات جزافًا، يجب عليكم فقط أن تقرأوا رواياتي، وأن تحاولوا فهمها، وأن لا تجتزؤوا منها، اقرأوها كلها، في مجموعها، وانظروا لها كذلك قبل أن تصدروا أحكامكم المسبقة، الظالمة والمضحكة معًا، تلك

الأحكام البغيضة التي تنال من شخصي، ومن مؤلفاتي، فشارب الدماء الروائي الضاري هو رجل بورجوازي فاضل، رجل فن ودراسة، يعيش في صومعته بحكمة وهدوء، ولا يطمح لشيء إلا أن يترك على قدر ما يستطيع أثرًا كبيرًا حيًّا، فأنا لا أكذب، ولا أدعي أية حكاية، إنني أعمل بجد تاركا للزمن، ولحسن النية العام أن يكتشفاني من تحت طبقات الحماقات المتراكمة".

هذا القول الذي دافع به إميل زولا عن نفسه في عام ١٨٧٧، يكشف عن الأجواء النفسية والاجتماعية التي عاشها الكاتب في باريس القرن الثامن عشر، وقد أصبحت بالنسبة للكاتب الأوروبي تاريخًا سيئًا، لكنها للأسف ما تزال إلى اليوم حاضرة في مجتمعاتنا تحاصر الكاتب العربي، وتحد من حريته، وبالتالي تحد من قدرته على الإبداع، والآن عزيزي القارئ ها هي الرواية بين يديك، والحكم على مستواها، وعلى فائدتها، ومدى توفيق كاتبها لك وحدك.

خالد سليمان

الفصل الأول

ظلت جرفيز في النافذة وهي تنتظر لانتيير إلى ما بعد انتصاف الليل بساعتين كاملتين. وقد كفت عن مغالبة النعاس، واستسلمت له عندما عجزت عن احتمال البرد، وهي واقفة بقميصها الداخلي الأبيض، لذلك ألقت بنفسها على الفراش، محمومة.. دامعة العين.

لقد اعتاد لانتيير، في الأسبوع الأخير، أن يعود بها مساء بعد أن يتناول معها العشاء في مطعم "فيوآديوتيت"، أن يطلب منها أن تنام مع ولديهما، ثم يخرج بمفرده ليعود في ساعة متأخرة زاعمًا أنه كان يبحث عن عمل. ولكنها في هذا المساء، خيل إليها أنها رأته – من النافذة – يدخل مرقص "جراند بالكون" الذي كانت نوافذه العشر تضيء حافات الظلام في الشوارع القريبة كأنها شريط من النور. ومن ورائه، أي لانتيير، خيل إليها أنها رأت الفتاة اديل العاملة بمصنع تلميع المعادن، والتي اعتادت أن تتناول طعامها في نفس المطعم "فيواديوتيت" تسير وهي تطوح ذراعيها على مسافة خمس أو ست ياردات منه. وكان الواضح أنهما كانا حريصين على يسيرا منفردين حتى لا يلفتا إليهما الأنظار تحت الأضواء الساطعة.

ولما استيقظت جرفيز في نحو الساعة الخامسة، متصلبة الجسم موجهة المفاصل، انفجرت باكية. أن لانتيير لم يأت بعد. وأنها للمرة الأولى التي يبيت فيها ليلته بعيدًا عنها. وأنها لتبقى جالسة في فراشها تتلفت بعينين دامعتين إلى الغرفة المفروشة المستأجرة، فلا ترى إلا مظاهر الفاقة في كل

مكان.. فلم يكن بالغرفة إلا فراشان لها ولزوجها، ولابنيهما كلود ابن الثامنة من عمره، وأتيين ابن الرابعة من العمر، وصيوان ملابس، وخزانة أدراج، وثلاثة مقاعد، ومنضدة عليها إبريق ماء. وفي ركن من الغرفة حقيبة الملابس الكبيرة، مفتوحة، وبعض الملابس القذرة تطل منها. وكذلك كان ثمة ملابس مغسولة ومنشورة على ظهور المقاعد. وفوق خزانة الأدراج وبين شمعدانين صغيرين، كان ثمة إيصالات رهن زرقاء اللون مجمعة بمشبك.

وكان الولدان مستغرقين في النوم.. ولما وصلت نظرات الأم إليهما، انفجرت باكية مرة أخرى، ثم ضغطت بمنديلها على فمها حتى تكتم شهقاتها، ولم تلبث أن نهضت – حافية القدمين – ومضت مرة أخرى لتقف في النافذة.. تنتظر.

وكانت الغرفة المستأجرة في فندق بشارع دي لا شابيل على اليسار من شارع بواسونير. وكان الفندق بناء حقيرًا أحمر اللون، مكونًا من طابقين يحمل اسم "فندق بونكير" لصاحبه "مارسولير".. ظلت جيرفيز واقفة في النافذة، والمنديل على فمها تمد البصر يمينًا في اتجاه شارع دي روشيكورت حيث كانت جماعة من الجزارين تقف أمام المجزر القريب، وقد تلوثت ملابسهم بالدماء. وإذا مدت بصرها شمالًا رأت في نهاية الشارع البعيد مستشفى لاريبوازير الذي كان تحت الإنشاء في ذلك الحين.

وخيل إليها مرة أخرى أنها رأت لانتيير يسير بين جموع العمال الذاهبين إلى أعمالها، فأطلت برأسها لتحسن النظر، ولكنها سمعت من ورائها في تلك اللحظة من يقول لها بصوت فيه رقة ومرح:

– ألم يحضر بعد رجلك الطيب يا مداد لانتيير؟!

فتراجعت عن النافذة قليلًا، وأجابت بابتسامة خفيفة:

– لا يامسيو كوبيو...

وكان المتحدث هو السباك الشاب كوبيو المقيم في غرفة بأعلى الفندق إيجارها الشهري عشرة فرنكات. وكان هابطًا في طريقه إلى العمل، يحمل حقيبة أدواته على كتفه. ولما وجد مفتاح غرفة جيرفيز بالباب، دخلا بلا كلفة أو استئذان.

وقال وهو يشير إلى المستشفى الجاري بناؤه:

– أترين.. إنني أعمل في إقامة هذا المستشفى. ولكن.. يا له من جو بارد هذا الصباح رغم شهر مايو!

ثم نظر في وجه جرفيز المنتفخ بالبكاء، ثم إلى السرير الذي دل على أن أحدًا لم ينم فيه، ثم هز رأسه أسفًا، وقال وهو يقترب من فراش الطفلين النائمين.

– إذن فقد أطلق رجلك الطيب العنان لنزواته؟ لا تحزني يا مدام لانتيير.. إنه مشغول بالسياسة. وقد كان يلقى حتفه، وهو يشتم الإمبراطورة جرفيز نفسها، وغمغمت قائلة.. إنني أعرف أين أمضى ليلته.

إن لدينا متاعبنا الخاصة مثل كل الناس.

فهز كوبيو كتفيه وقال إنه آسف لتدخله في شئون غيره، ولكنه على استعداد لتقديم أية خدمات لها في أي وقت..

ثم انصرف.. وعادت جرفيز إلى النافذة.

وبقيت في النافذة ترقب العمال وهم في طريقهم إلى أعمالهم المختلفة، ثم ركزت نظراتها على باب حانة بيركولومبس، على يسار الطريق، حيث خيل إليها أنها رأت لانتيير يدخلها. وفي تلك اللحظة رفعت امرأة بدينة تضع على صدرها مبدعة، رأسها وهي واقفة في الطريق، وهتفت قائلة لجرفير:

– مدام لانتيير.. إنك مبكرة في اليقظة اليوم!

وأطلت جرفيز من النافذة، فرأت أن المتحدثة هي مدام بوش، بوابة المنزل الذي يقع فيه مطعم "فيواديوتيت". ومن ثم ردت عليها قائلة:

–آه.! أهذه أنت يا مدام بوش.؟ إن لدي اليوم أعمالًا كثيرة يجب أن أفرغ منها.

– صدقت.. إن الأعمال لا تعمل نفسها.. لا بد من أن يقوم بها أحد، أليس كذلك؟

وهكذا بدأت المحادثة بين المرأتين.. وكانت مدام بوش صديقة خاصة لجرفيز التي كثيرًا ما جلست في غرفتها – غرفة مدام بوش البوابة – تنتظر حضور لانتيير إلى المطعم، حتى لا تبقى في انتظاره داخل المطعم بمفردها، عرضة لأنظار وغمزات الرواد...

وقالت مدام بوش – البوابة، وقد لاحظت شرود ذهن جرفير أثناء حديثها معها:

– هل المسيو لانتيير لا يزال نائمًا؟

واضطرم وجع جرفيز، وهي تكذب قائلة:

– نعم.. لا يزال نائمًا.

ولاحظت مدام بوش الدموع تطفر إلى عيني جرفيز، وظنت أن صديقتها تبكي لأن لانتيير يفضل الكسل والنوم على العمل، وقبل أن تنصرف قالت كأنها تذكرت شيئًا:

– إن اليوم موعد الغسيل.. أليس كذلك؟، لسوف أحجز لك مكانًا بجواري في المغسل لنتحدث كما نشاء.

ثم أردفت قائلة في لهجة تنم عن العطف والرثاء:

– ادخلي من النافذة يا عزيزتي المسكينة.. إن البرد قد يقتلك.

ولكن جرفيز ظلت تنتظر ساعتين أخريين. وفتحت المتاجر أبوابها في الثامنة صباحًا، وازداد مرور جماعات العمال من كل مكان إلى كل مكان. وأخذت المدينة تفتح عينيها بعد أن تمطلت وتثاءبت ودب فيها النشاط بأكمله. وشعرت جيرفيز برأسها يدور وأمالها تنهار، ولاح لها أن لانتيير لن يعود إليها أبدًا.. فتراجعت عن النافذة وتهالكت جالسة على أقرب مقعد إليها، وعقدت يديها في حجرها، وفجأة رأت لانتيير يدخل هادئًا، فوثبت واقفة وصاحت قائلة وهي تهم بعناقه.

– أهذا أنت.. أنت؟!

فرد بثبات:

– نعم أنا.. ماذا في هذا؟ أرجوك أن تتمالكي نفسك.. لا أريد مزيدًا من الحماقات.

ودفع بها جانبًا في غضب، وألقى بقبعته على خزانة الأدراج، وكان شابًا في السادسة والعشرين من عمره، وسيمًا، رفيع الشارب، قصيرًا، خمري البشرة، أسود الشعر. وكان يرتدي ملابس العمال، الصديرية والبنطلون الكتاني. وكانت لهجته تنم عن ريفيته:

وقالت جرفيز في عتاب:

– إنني لم أستطع النوم لحظة واحدة طيلة الليل. ظننت أن شيئًا حدث لك. أين كنت. أين أمضيت ليلتك، أوه.. أرجوك.. أخبرني حتى لا أفقد عقلي.. أين كنت يا أوجست؟!

فهز أوجست لانتيير كتفيه، وقال بغير اهتمام:

– كنت حيث ينبغي أن أكون! في الساعة الثامنة كنت في حانة لاجاسيير حيث انتظرت صديقًا كان قد وعدني بالعمل معه في المصنع الذي يعمل به. وقد تأخرنا إلى ما بعد منتصف الليل في الحديث، فقررت أن أمضي الليلة هناك. ومع هذا فأنا لا أحب أن يستجوبني أحد، أو يتجسس علي أحد.

وعادت الشابة جرفيز تبكي مرة أخرى. وكان صوت لانتيير واصطدامه بالمقاعد قد أيقظ الطفلين، فلما رأيا أمهما تبكي، راحا يبكيان معها. فصاح لانتيير بهما في غضب:

– كفى.. كفى.. ما هذا؟ إنني أحذرك. إذا لم تكفي عن البكاء أنت وهما.. فسوف أخرج ولا أعود.

وتناول قبعته من فوق خزانة الأدراج، ولكن جرفيز أمسكت بذراعه في توسل وقالت:

– لا.. لا..

وكتمت بكاءها، وراحت تهدد طفليها وتقبلها حتى كفا عن البكاء. وما لبثا بعد لحظات أن راحا يضحكان ويتبادلان اللكزات، بينما ألقى الوالد بنفسه – دون أن يخلع حذاءه – على الفراش متظاهرًا بالإرهاق. ولكنه لم ينم، وإنما قال لجرفيز وهو ينظر إلى كومة الملابس القذرة في ركن الغرفة:

– شيء جميل.. إذن فلم تغسلي الملابس اليوم بعد؟!

وأردف قائلًا بابتسامة تهكم:

– ولكن كيف تغسلين الملابس وأنت لم تغسلي وجهك؟

وكانت جرفيز في الثانية والعشرين من عمرها. طويلة رشيقة رقيقة الملامح ذهبية الشعر، ولكن قسوة الحياة تركت على وجهها طابعها الشاحب، مما جعلها تبدو أكبر من عمرها بعشرة أعوام. ولما سمعت كلمات لانتيير، قالت في خوف واستسلام:

– إنك غير منصف يا أوجست. إنني أحاول أن أفعل كل ما في وسعي. ولا ذنب لي فيما وصلت إليه حالتنا. ماذا يمكنني أن أفعل وأنا أعيش في غرفة واحدة مع طفلين، وليس لدي موقد أسخن عليه الماء. لقد جئنا إلى

باريس لتجد لنفسك عملًا نقتات منه ،ولكنك لم تحاول حتى اليوم أن تبحث عن عمل.

فصاح قائلًا:

– الآن تلقين علي باللوم كله.. أليس كذلك؟!

فهزت رأسها وقالت:

– لا داعي لأن يلقي أحدنا اللوم على الآخر.. إن مدام نوكوفير صاحبة محل الغسيل على استعداد لأن تلحقني بالعمل معها، وإذا استطعت أن تجد لنفسك عملًا، فيمكننا أن نصلح أحوالنا في أسرع وقت.. يمكننا في ستة أشهر أن نستأجر لأنفسنا شقة صغيرة وأن نؤثثها ونعيش محترمين.. ولكن يجب أولًا أن نعمل ونعمل.. ولا نكف عن العمل يومًا..

فتقلب لانتيير في فراشه ملولًا.. وانفجرت جرفيز قائلة في حنق:

– نعم، هذا هو السبيل.. لا أحد يموت من العمل الدائم. إن عيبك أنك منتفخ الأوداج بالطموح والأمل. إنك ترفض أن تمارس مهنتك كصانع قبعات.. لا تريد أن يقال عنك قبعاتي.. تريد أن تبدو كسيد مترف يقضي لياليه مع البغايا المرتديات الملابس الحريرية. إنك الآن تعيرني بأني لا أبدو في أحسن حال.. هل نسيت أنك أرغمتني على رهن آخر ثوب حريري كان عندي؟ اسمع يا أوجست. إنني لا أريد أن أحمل عليك باللوم الآن. ولكنني أعرف تمامًا أين أمضيت ليلتك، ومع من؟ لقد رأيتك تدخل مرقص الجراند بالكون مع تلك البغية أديل. إنك معجب بها.. أليس كذلك؟ كثيرًا ما تحدثت عنها، وعن أختها فيرجيني، وكثيرًا ما أعربت عن إعجابك بملابسها الحريرية،

ولعلك تظن أنها سيدة أو آنسة محترمة، ولكن يجب أن تعلم أنها تبيت لياليها مع كل رواد المطعم.

فوثب لانتيير من الفراش في سورة غضب هائلة، وقال صارخًا:

– إذا لم تكفي عن هذا الحديث فسأقطع لسانك.

ولكنها استطردت قائلة وقد سرها أنها أثارته:

– نعم.. مع كل رواد المطعم.. وأؤكد لك أن مدام بوش سوف تستأذن مالك البيت في طردها.. وطرد أختها معها، لأن طابور الرجال لا ينقطع كل ليلة أمام باب شقتهما.

ورفع لانتيير قبضته ليضربها، ولكنه تراجع وأمسك بذراعها، وألقى بها على فراش الولدين اللذين بدأ يبكيان مرة أخرى، وعاد لانتيير وتراخى على الفراش وهو يغمغم غمغمة الرجل الذي استقر رأيه على أمر بعد طول تردد.

وبعد برهة صمت قال:

– إنك لا تعرفين ماذا فعلت بنفسك الآن يا جرفيز.. ولكنك سوف تندمين على كل كلمة تفوهت بها.

وكانت جيرفيز قد أخذت الولدين بين ذراعيها، وراحت تتمتم قائلة بصوت رتيب:

– آه.. لولا أنتما يا ولداي.. لولا أنتما.. لولا أنتما.. وظل لانتيير متراخيًا في فراشه. ينظر إلى السقف حينًا، وإلى جيرفيز حينًا آخر، دون أن ينطق بكلمة. وكانت هي قد انشغلت في ترتيب الغرفة وتنظيفها وجمع

الملابس القذرة لغسلها. وكانت تعرج قليلًا بساقها اليمنى. ولم يكن عرجها ملحوظًا إلا عندما يستبد بها التعب والإرهاق. وكانت في تلك اللحظات مرهقة إلى حد أنها أخذت تعتمد بيدها على جدران الغرفة بين الحين والآخر. ولما جمعت كومة الملابس المعدة للغسيل، قال لانتيير لها كأنما تذكر أمرًا:

– ماذا تفعلين ؟ إلى أين أنت ذاهبة؟

ولم ترد عليه في أول الأمر، ولما كرر السؤال غاضبًا، قالت:

– ألا تعرف؟ هل نسيت بسرعة؟ إنني ذاهبة إلى المغسل، وأيًّا كانت حالتنا، فأنا لا أستطيع أن أترك الولدين يعيشان في هذه القذارة.

وجمعت منديلين أو ثلاثة ووضعتهما مع كومة الملابس. وعاد هو يقول بصوت هادئ:

– ألديك بعض النقود ؟

فانتصبت واقفة، وحملقت في وجهه، وقد أمسكت بين يديها بضعة قمصان للولدين، ثم قالت في تهكم:

– نقود! من أين تظن أن في مقدوري أن أسرق؟ إنك تعرف تمامًا أنني حصلت أمس على ثلاثة فرنكات بعد أن رهنت جونلتي السوداء. وقد تناولنا بهذا المبلغ الطعام مرتين. وكل ما بقي معي الأن أربعة مليمات لأدفعها أجرًا لصاحب المغسل، إنني لا أحصل على النقود بالطريقة التي يحصل عليها بعض النساء.

وتجاهل المعنى المستتر وراء عبارتها الأخيرة، ثم نهض وراح يجمع بعض

الملابس البسيطة، وأضاف إليها مطرفًا كان لجرفيز، وألقى بالكومة بين يديها وقال:

– إذهبي وارهني هذه الملابس.

فقالت متهكمة:

– ألا تريد أن نرهن الولدين أيضًا إذا وجدنا من يرهنهما؟! ولكنها، مع هذا، انصرفت بكومة الملابس البسيطة والمطرف، وعادت بعد نصف ساعة وقالت، وهي تضع ورقة من فئة الخمسة فرنكات وإيصال الراهن مع باقي الإيصالات فوق خزانة الأدراج. – هذا كل ما استطعت أن أحصل عليه من محل الرهوناتن ولم يأخذ لانتيير الخمسة فرنكات فورًا، وإنما تمنى لو أنها جاءت بهذه الفرنكات فرادى حتى يأخذ جانبًا، منها ويترك جانبًا آخر لتشتري منه طعامًا.. ولكنه لم يلبث أن وضع المبلغ في جيبه حين لمح على المنضدة كمية قليلة من المربى مع بعض كسرات من الخبز؟

وقالت جرفيز له:

– إنني لم أستطع أن أشتري شيئًا من اللبن، لأننا مدينون للبان بثمن الألبان أسبوعيًّا. وعليك أن تشتري كمية من لبان آخر، وبعض الطعام وزجاجة نبيذ، ريثما أعود من المغسل.

ولم يعترض هو على شيء.. وخيمت فترة من السلام والسكينة على جو الغرفة. واستأنفت الشابة الحسناء جمع الملابس المعدة للغسيل. ولكن لانتيير هتف بها حين رآها تأخذ من قاع الحقيبة الكبيرة بعض قمصانه وجواربه:

– لا.. لا.. دعي هذه الأشياء في مكانها.

فقالت في دهشة وهي تمسك بها أمامها:

– عجبًا! أتريد أن ترتدي هذه الملابس وهي على هذا القدر من القذارة؟

ولكنه انفجر غاضبًا وقال:

– ما شأنك أنت؟ افعلي ما أطلبه منك بلا معارضة. هذه ملابسي وأنا حر التصرف في أمرها.

فقالت وقد شحب وجهها حين خامرتها بعض الوساوس والشكوك:

– ولكن ماذا يضيرك لو أني غسلتها.. هل تنوي الخروج.. الآن؟!

فتردد برهة ثم قال:

– عجبًا إنك دائمًا تعيرينني بأنك تتعبين من أجلي.. حسنًا، لا داعي لهذا التعب.. لسوف أغسل حاجاتي بنفسي، وعليك أنت أن تغسلي حاجاتك وحاجات ولديك بنفسك.

ثم اختطف ملابسه من يديها، وأعادها إلى الحقيبة الكبيرة، وأغلقها بالمفتاح، وهو يردف قائلًا:

– هذا هو أمري النهائي...

وقالت له بخوف واستعطاف::

– إنني لم أضج بالشكوى يومًا من غسل ملابسك.. فلماذا..

– لا داعي للجدل..

ووقفت مترددة.. ولكنه كان قد استلقى على جانبه وأغمض عينيه.. وسرعان ما غط في نوم عميق، فهزت جرفيز كتفيها، وجمعت ملابسها وملابس الولدين، واقتربت منهما حيث كانا يلعبان بسدادات زجاجات النبيذ بجوار النافذة، وقالت لهما هامسة:

– إلعبا بهدوء الآن، لأن الوالد نائم.

الفصل الثاني

غادرت جرفيز الغرفة وهي تسمع صوت ضحكات الولدين المكتومة، وكانت الساعة قد وصلت إلى العاشرة، وكان ضوء الشمس قد نجح في التسلل إلى الغرفة عبر النافذة.

وحين وصلت جرفيز إلى الشارع، استدارت إلى جهة اليسار باتجاه طريق "نيف دي لاكوت وور". وفي منتصف الطريق، وجدت نفسها أمام محل مدام فوكوفير للغسيل والكي، فحيتها بإيماءة خفيفة. من مكانها استطاعت أن ترى فوق المغسل ثلاثة خزانات ضخمة من الزنك تنساب منها المياه الساخنة والباردة في أنابيب إلى صنابير المغسل بالدور الأرضي، وفوق هذه الخزانات كان ثمة طابق آخر للتجفيف.

ودفعت جرفيز أجر الدخول للرجل الضخم الجالس بالباب، ثم دخلت إلى قاعة هائلة مغلقة ببخار الماء، ومزدحمة بالنساء الجالسات أمام الصنابير والأحواض يغسلن الملابس بالمضارب. ويتبادلن الأحاديث والضحكات، وبجوارهن الدلاء والأوعية التي يحملن فيها الملابس المغسولة إلى المناشر.

وما كادت جرفيز تأخذ طريقها إلى حوض خال وهي تزداد عرجًا لفرط احساسها بالإرهاق، إذا بصوت مدام بوش البوابة تقول لها:

– تعالي هنا بجانبي يا عزيزتي.

ولما أخذت مكانها بجوار مدام بوش على الجانب الأيسر من القاعة،

أخذت البوابة تحدثها بعبارات متقطعة وهي منهمكة في عملها.

وكانت تقول:

– هذا هو مكانك.. احتجزته لك. ولن أطيل في عملي هنا.

إن موش لا يلوث ملابسه إلى حد كبير، وأنت أيضًا سوف تفرغين من عملك بسرعة، فإن كمية الملابس التي معك قليلة كما أرى، ويمكننا أن نفرغ من عملنا في الثانية عشرة ثم نتناول غداءنا. وقد اعتدت أن أعطي ملابسي المغسولة إلى كواءة في شارع بوليت، ولكنها تفسدها بمساحيق التنظيف وسوء الكي.

وعلى هذا النحو ظل الحديث جاريًا بين المرأتين، ولما رأت مدام بوش طريقة جرفيز في غسل الملابس، قالت لها:

– إنك بارعة حقًّا..ولا عجب، فقد كنت تشتغلين في محل غسيل وكي ببلدتك! أليس كذلك؟

وودت جرفيز قائلة بصوت مرتفع حتى تسمعها مدام بوش في ضجيج المغسل:

– نعم.. نعم..كنت كذلك في بلدتي بلاسان.. هل تعرفين بلاسان، إنها بجوار مرسيليا، وكنت أغسل الملابس وأنا في العاشرة من عمري، أي منذ اثنى عشر عامًا.. ولكن العمل هناك، في الهواء الطلق، وبجوار الجدول، أفضل منه هنا في هذا الجو الخانق.

وقالت مدام بوش وهي تعمل يديها في الغسيل بقوة:

– لهذا أنت قوية كالحصان، وإن كانت ذراعاك كذراعي سيدة مترفة!

وبعد لحظات من الحديث على هذا النحو، قالت جرفيز لصديقتها بصوت خافت ردًّا على سؤالها:

– لا.. إنني ولانتيير لم نتزوج بعد.هذه هي الحقيقة التي لا داعي لإنكارها، ولولا الولدان لما رضيت أن أتزوج هذا الشاب الفاسد.. لقد كان في الثامنة عشرة من عمره، وكنت في الرابعة عشرة عندما أنجبنا الولد كلود، وجاء الثاني بعد أربعة أعوام. وهي المأساة المعروفة.. لم أكن سعيدة في حياتي مع أمي وزوجها العجوز ماركات. لقد ظل العجوز السكير يضربني بمناسبة وبغير مناسبة، حتى جعل حياتي جحيمًا. ولهذا كنت ألتمس الحنان في الخارج. وقد خدعني لانتيير بحديثه المعسول وأنا في الثالثة عشرة من عمري.. وهذه هي النتيجة:

والتمعت عينا مدام بوش بالرضا بعد أن أشبعت فضولها، ثم قالت برفق:

– هل يسيء معاملتك الآن؟

– كان في أول الأمر لطيفًا حانيًا.. ولكن منذ أن جئنا إلى باريس وهو يعاملني بغلظة وقسوة. لقد جاء بي إلى باريس بعد وفاة والدته في العام الماضي، وحصوله على مبلغ سبعمائة فرنك قيمة نصيبه في الميراث، ووافقت على المجيء حين وعدني بأن يفتتح لي محلًا خاصًّا للغسيل الكي، وأن يعمل هو في صناعته.. أي في صناعة القبعات. ولكن لانتيير كسلان بطبيعته.. لا يطيق العمل مادام لديه ما يكفيه يومًا واحدًا.. وهكذا أخذ ينفق المبلغ الكبير على ملذاته.. وبدأنا الإقامة في فندق فاخر في مونمارتر، ثم ظللنا

ننتقل من فندق فاخر إلى فندق متوسط، ومنه إلى هذا الفندق الحقير الذي نقيم فيه الآن. وقد أصبحنا لا نجد شيئًا من الطعام إلا إذا رهنا بعض ملابسنا.

وتحشرج صوتها بالبكاء، وطفرت الدموع إلى عينيها، ومن ثم نهضت وهي تقول:

– معذرة. سأذهب لإحضار بعض الماء الساخن.

ولكن مدام بوش التي سرها أن تغدو موضع ثقة هذه الصديقة، أمسكت بذراعها ثم هتفت على أحد عمال المغسل قائلة:

– هلم يا شارلي..احضر بعض الماء الساخن لهذه السيدة.. إنها متعجلة. ولما أحضر العامل – وكان غلامًا – جردل الماء الساخن، تبرعت مدام بوش لصديقتها بكمية من الصودا الكاوية لتنظيف الغسيل، ثم قالت متوجهة بالحديث إلى لانتيير:

– لا شك أنه يحب المرور.. ومغازلة النساء.

– نعم.. لقد لاحظت في الأيام الأخيرة ما يؤكد لي هذه الحقيقة.

– وهذا ما لاحظته أيضًا يا عزيزتي..

ولما رفعت جرفيز وجهها الشاحب في تساؤل، أسرعت البوابة تقول كأنما تريد أن تخفي شيئًا:

– لا. لا. كل ما لاحظته أنه كان يعبث قليلًا مع الأختين الساكنتين في عمارتنا. آديل وفرجيني.. هذا هو كل شيء.

وزمت جرفيز شفتيها، وقطبت جبينها، وارتسم الهم العميق في عينيها، ومن ثم قالت البوابة مواسية:

– أعتقد من ناحيتي أنه سيعقد قرانه عليك يا عزيزتي، إنني واثقة بهذا.

ومسحت جرفيز جبينها، واستمرت في عملها صامتة. وأخيرًا قالت مدام بوش بارتياح:

– لقد فرغت من عملي، دعيني أساعدك قليلًا يا عزيزتي.

– لا لا.. شكرًا.. لقد أوشكت أن أفرغ أنا أيضًا من عملي، ولكن البوابة أصرت على مساعدتها. وفي تلك اللحظة، دخلت فتاة طويلة القامة خمرية البشرة، حسناء، ترتدي ثوبًا أسود. ولما رأت جرفيز، أشاحت بوجهها وتجاهلتها. وهنا قالت مدام بوش:

– آه.. هذه فرجيني.. ماذا جاء بها إلى هنا؟ إنها لا تملك أكثر من الثوب الذي ترتديه، وبضع قطع من الملابس البالية!

ثم أردفت هامسة:

– إنها مثال للكسل. هي وأختها. تفضلان التسكع في الطرقات واصطياد الرجال على العمل الشريف. إنهما بلا أم أو أب تسير وكأنها أخت بونابرت!

ولاح بوضوح أن مدام بوش أرادت أن توطد صداقتها بجرفيز على حساب فرجيني وأختها. وذلك رغم أن الأختين كانتا لا تترددان في تقديم بعض كئوس الشراب للبوابة وزوجها كلما تسير لهما بعض المال.

وفجأة استدارت فرجيني وعادت تمشي بجوار جرفيز وهي تنظر إليها في تحد. زلما رأت مدام بوش الاثنتين تتبادلان هذه النظرات المتحدية، قالت لجرفيز:

– دعينا منها.. هلم نفرغ من عملنا لنخرج من هنا.

وفي تلك اللحظة قال الغلام شارلي عامل المغسل:

– هنا طفلان يريدان أمهما:

ونظرت جرفيز، فرأت طفليها، كلود واتيين، يتقدمان نحوها جريًا حين رأياها.. وكانا يبكيان بحرقة. وأسرعت جرفيز إليهما تقول في لهفة.

– ماذا حدث.. هل أرسلكما أبوكما؟

ولمحت في يد كلود مفتاح الغرفة، فقالت بدهشة:

– عجبًا! لما أحضرت هذا المفتاح معك!

فصاح الطفل قائلًا وهو يشهق بالبكاء:

– لقد ذهب أبي.

– تعني أنه ذهب لإحضار طعام الغذاء. أليس كذلك؟

وصمت كلود برهة كأنما تردد مصارحة أمه، وأخيرًا قال:

– لا.. لقد ذهب نهائيًا.. نهض من السرير وجمع حاجاته ووضعها في الحقيبة الكبيرة، وذهب في مركبة..

ووقفت جرفيز ببطء وقد شحب وجهها، ثم وضعت يديها على جانبي رأسها كأنما تخشى عليه من الانفجار، وتمتمت في ذهول.

– يا إلهي. يا إلهي. يا إلهي..

وحاولت مدام بوش أن تواسيها.. ولكن جرفيز هزت رأسها وقالت بصوت جاف:

– آه لو كنت تعلمين؟ لقد جعلني اليوم فقط أرهن بعض ملابسي ومطرفي لأحضر له خمسة فرنكات. لأحضر له المبلغ اللازم لهربه مني.. ومن ولديه!!

وانفجرت باكية.. وقالت البوابة:

– كفى. كفى. إن النساء هنا يرقبنك. أتظنين أنه يستحق هذا الحزن كله؟ إذن فأنت لا تزالين تحبينه. يا عزيزتي المسكينة. لقد كنت غاضبة عليه منذ لحظة، والآن تبكين من أجله.. ما أشد حماقتنا نحن النساء!

ثم أردفت قائلة في عطف الأم:

– لا تنسي أنك شابة وجميلة، ويكفي أن تشيري بإصبعك إلى أي شاب مجتهد مستقيم ليتزوجك.. أرجوك أن تكفي عن البكاء، إن فرجيني جاءت لتتسلى بالنظر إليك.. إنني أعرف أن لانتيير كان عشيقًا لأختها في الأيام الأخيرة.. ولا شك أنه هرب معها، وقد جاءت هذه البغية لتشاهد وقع الصدمة عليك. انظري. إنها تبتسم شامتة..

ورفعت جرفيز وجها المخضل بالدموع، ورأت فرجيني واقفة بين امرأتين،

وتهمس لهما. وسرعان ما تناولت جرفيز جردل ماء ممتلئًا وتقدمت به نحو فرجيني التي هتفت، وهي تتراجع:

– ابتعدي يا فاجرة.

وقذفت جرفيز بالماء على فرجيني، ولكنه لم يصل إلا إلى قدميها وصاحت الفتاة في ثورة:

– إنها مسكينة. فقدت عقلها..

ووقفت جرفيز معقودة اللسان، لأنها لم تكن قد استوعبت بعد قاموس الشتائم المعروف في الأوساط الشعبية الباريسية. أما فرجيني فقد استطردت تقول:

– انظري إليها؟ لقد كانت سجينة في بلدتها.. كانت عشيقة لجندي وهي في الثانية عشرة.. ويبدو أنها نسيت إحدى ساقيها في بلدتها وهذا سر عرجها.

وتشجعت فرجيني حين سمعت الضحكات تنطلق حولها، فاستطردت قائلة بمزيد من السخرية والتهكم :

– لماذا تنظرين إلي هكذا؟ إذا كانت لديك ذرة من الشجاعة فتقدمي نحوي.. تقدمي لكي أجعل الجميع هنا يشاهدون ملابسك الداخلية القذرة..

وقالت جرفيز في النهاية بصوت متحشرج.

– لا تكثري من الثرثرة. إنك تعرفين تمامًا أين كان زوجي في الليلة الماضية. اخرسي وإلا خنقتك بيدي هاتين.

وصاحت فرجيني قائلة في تهكم وسخرية:

– زوجها؟ هاها.. إن السيدة تقول عن لانتيير أنه زوجها؟ هذه أحدث فكاهة! هل يمكن أن يكون لبغية مثلها زوج؟ إذا كان قد لفظك فهذه ليست غلطتي. إنني لم أسرقه على كل حال.. فتشيني إذا شئت. هل تريدين الحقيقة؟ لقد كدت أن تقتليه. إنه شاب ممتاز ما أنت جديرة بمثله. هل رأت إحداكن زوجها؟ جائزة لمن تعثر عليه..

وغمغمت جرفيز بعد أن هدأت عاصفة الضحك:

– أنت تعرفين أين هو.. إنها أختك الفاجرة.. لسوف أقتلها.

– إذن لماذا لا تفعلين. اذهبي واقتليها. ولكن لا تنسي أنها أجمل منك ألف مرة. والآن دعيني أغسل ملابسي في هدوء.. إنني لا أريد أن أضيع وقتي في الحديث مع امرأة صغيرة مثلك.

ولكن فرجيني لم تستطع أن تتوقف عن السخرية والتهكم بعد أن رأت نجاحها بين النساء الأخريات، فقالت:

– إنها أختي حقًّا.. ولكن ما شأنك أنت. إن لانتيير يحبها.. وهي تبادله الحب. أتمنى لو أنك رأيتهما يتبادلان القبل والعناق. إن للانتيير العذر في هربه منك.. ماذا يفعل بامرأة مثلك؟؟

وصرخت جرفيز في ثورة غضب هائلة:

– اخرسي. اخرسي. وإلا قتلتك!

ثم تناولت جردل ماء بسرعة وقذفت بما فيه في وجه فرجيني التي هتفت قائلة في حنق:

- لقد بللت البغية ملابسي. حسنًا. لسوف ترين ماذا سأفعل بك؟

وأخذت المرأتان تتبادلان قذف الماء والشتائم بين هتاف النساء وضحكاتهن.

وفجأة تناولت فرجيني جردل ماء ساخن وقذفت بما فيه على جرفيز. وصرخت النسوة:

- لقد أحرقتها.. لقد أحرقتها..

ولكن الماء الساخن لم يسقط إلا على ملابس جرفيز التي جن جنونها، فقذفت بجردل فارغ على فرجيني وأصابتها في ساقها، وجعلتها تسقط على أرضية المغسل صارخة:

وصاحت بعض النسوة:

- لقد كسرت ساقها.. يا للهول.

ولكن فرجيني أرادت أن تقتلها بالماء المغلي. ولها العذر.. ماذا تفعل بعد أن سرقت أختها رجلها ؟

وأخذت الطفلان يبكيان وينادیان على أمهما.. وأسرعت مدام بوش وأمسكت بثوب جرفيز حين رأت فرجيني على الأرض، وقالت لها:

- هذا يكفي.. لقد ثأرت لنفسك. يا إلهي.. إنني لم أر شيئًا من هذا القبيل في حياتي.

ولكن فرجيني كانت قد وثبت وأمسكت بعنق جرفيز، وحاولت أن تخنقها. واستطاعت جرفيز أن تخلص عنقها من قبضتي فرجيني ثم أمسكت بخصلات شعرها. وأخذت المرأتان تتعاركان في صمت وقسوة وعنف. كل منهما تحاول أن تمزق الأخرى. تمزق ملابسها أو شعرها أو وجهها. وانبثقت الدماء الأولى من وجه جرفيز عندما خدشتها فرجيني بأظافرها الطويلة المدببة، واستطاعت جرفيز أن تطلق الدماء من أذن فرجيني حين انتزعت منها قرطًا معدنيًّا، وصاحت بعض النسوة:

– إن كلا منهما ستقتل الأخرى.. يجب أن نفرق بينهما.

ولكن النسوة المتفرجات أبين أن يقتربن من المتعاركتين حتى يصيبهن سوء، وأسرعت مدام بوش إلى بواب المغسل، الرجل الضخم وقالت له:

– هلم يا جاك. حاول أن تفرق بينهما. أم تريد أن ترى جريمة ترتكب أمامك هنا؟

وابتسم البواب الضخم وقال وهو ينظر إلى المرأتين بعينين شرهتين:

– لا تجزعي.. إن المنظر ممتع.. إنني أريد أن أرى ما تحت ملابسهما الداخلية؟ يا للفتنة. لم أكن أظن أن مدام جرفيز بضة الجسم كالزبدة إلى هذا الحد!

وكانت أجزاء كثيرة من جسد جرفيز قد بدت وشفت عن بشرة بيضاء ناعمة مشربة بالحمرة من فرط الهياج.

وفجأة التقطت فرجيني مضرب غسيل وانهالت به على ظهر جرفيز وهي تصرخ قائلة:

– لسوف أعلمك الأدب أيتها الفاجرة.

وسرعان ما أمسكت جرفيز بمضرب آخر، وشرعت الاثنتان تتبارزان بالمضارب. وكلما أصابت إحداهما الأخرى، هتفت النسوة المتفرجات:

– واحد لفرجيني..

– اثنان لجرفيز..

– ثلاثة لفرجيني..

ولكن مدام بوش أسرعت بالطفلين الباكيين إلى خارج المغسل. وبعد انصرافها بقليل أصابت فرجيني ذراع جرفيز بحافة المضرب، فصرخت هذه من فرط الألم، وقد بدأت ذراعها تنتفخ. وصاحت بعض النسوة:

– هذا يكفي.. يجب أن يوضع حد لهذه المعركة الدموية ولكن إحداهن لم تستطع الاقتراب من جرفيز، حين رأين سورة الغضب الجنوني الهائل ترتسم على وجهها المنتفخ، وحتى فرجيني شعرت بالفزع من منظر جرفيز وحاولت أن تبتعد عنها، ولكن جرفيز أمسكت بها في ثورة رهيبة وأسقطتها على وجهها، ثم مدت يدها في فتحة ثوبها الخلفية وجذبت الثوب من أعلى إلى أسفل حتى بدت فرجيني عارية الظهر تمامًا.. وهنا تناولت المضرب وراحت تنهال بالضرب على الجسد العاري وتقول:

– هذه لك. وهذه لأختك. وهذه للانتيير. عندما ترينهما، قدمي إليهما هذه التحية نيابة عني. انتظري. لنعد من جديد. هذه للانتيير، وهذه لأختك. وهذه لك.

وتقدم البواب جاك في النهاية، وانتزع فرجيني من براثر جرفيز. وسرعان ما انطلقت فرجيني هاربة كالكلب المقهور المغلوب على أمره وهي تنخرط في بكاء حار، وتحاول أن تخفي جسدها العاري ببقايا ثوبها الممزق..

وجمعت جرفيز ملابسها، ولملمت أطراف ثوبها، وسارت مع مدام بوش إلى خارج المغسل حيث كان الطفلان في انتظارها.

ولما وصلت بهما إلى أول الشارع الذي يقع فيه فندق بوفكير، انسابت دموعها رغمًا عنها. وكان شارعًا مظلمًا ضيقًا.. لقد أعادت رائحته إلى ذاكرتها الأسبوعين اللذين أمضتهما مع لانتيير في حياة كلها البؤس والشقاء.

وهناك، في غرفة الفندق المستأجرة، وجدت لانتيير قد أخذ معه كل شيء له قيمة.. حتى إيصالات الرهونات لم يتركها وراءه.

عندئذ تحجرت في عينيها الدموع، ونظرت بيأس وأسى من النافذة إلى باريس. وحاولت أن تتخيل ما ينتظرها هي وولديها، فلم تستطيع.. لقد رأت أن حياتها معهما ستظل محصورة بين المجزر القريب.. والمستشفى الذي كان ما يزال تحت الإنشاء.

الفصل الثالث

وبعد مرور ثلاثة أسابيع.. كانت جرفيز وكوبيو السباك يتناولان النبيذ في حانة بيير كولومبيس. تمامًا عند الساعة الحادية عشرة والنصف صباحًا، كان كوبيو يدخن سيجارته خارج الحانة عندما رآها مقبلة في الطريق تحمل بعض الملابس إلى غرفتها في الفندق. واعترض مسيرها، وألح عليها لتقبل أن تشرب معه بعض النبيذ في الحانة. وقبلت دعوته، وجلست معه إلى مائدة من الزنك، ووضعت بجوارها السلة الكبيرة التي تحمل فيها الملابس المعدة للغسيل والكي.

وكانت حانة بيير كولومبيس تقع في مفترق شارعي دي بواسونير وروشيكورت. وكانت الحانة في هذه الساعة من الظهرية شبه خالية من الرواد. وكان صاحبها كولومبيس واقفًا بجسمه الضخم يبيع لفتاة في الثانية عشرة، كمية من النبيذ ثمنها أربعة دراهم، كانت تحملها في قدح إلى أبيها. وكانت الشمس تدخل من الباب وتدفئ الأرضية الرطبة تحت الأقدام. أما جوها فكان مشحونًا برائحة الخمر ودخان السجائر.

وأشعل كوبيو سيجارة أخرى، وهو يبتسم في وجه جرفيز. وكانا شابًّا في نحو السابعة والعشرين، على شيء من الوسامة، مستقيم الشعر، ناعم البشرة كعذراء، وكانت جرفيز جالسة أمامه بشعرها الذهبي، وجمالها الفاتن، وابتسامتها الحزينة. وكانت مائدتها قريبة من مدخل الحانة.

ولما فرغ كوبيو من إشعال سيجارته، وضع مرفقيه على المائدة وانحنى إلى

الأمام، وراح ينظر إلى جرفيز برهة طويلة في سكون، ويتأمل بشرتها الصافية التي بدت في تلك اللحظة كأنها مصنوعة من الخزف الثمين، وأخيرًا وجه إليها السؤال التالي عن موضوع طالما تبادلان الحديث فيه:

– إذن فأنت ترفضين؟

فقالت جرفيز، وهي تحاول الابتسامة في هدوء:

– أوه.. أرجوك يا مسيو كوبيو. لا داعي للعودة إلى الحديث في هذا الأمر. لقد وعدتني قبل دخولنا أن تتجنب الحديث عن الزواج، ولو كنت أعلم أنك ستفاتحني فيه، لما قبلت دعوتك.

ولم يقل هو شيئًا. وإنما ظل ينظر إليها في شوق ولهفة، ويركز نظراته على شفتيها الوردتين، المرطبتين بالنبيذ، وبينما بقيت هي في مكانها، تبتسم في هدوء وثقة.

وعادت هي تقول:

– أنك حقًّا لا تعني ما تقول.. إنك لست جادًّا في عرضك الزواج على.. إنني أصبحت عجوزًا بالنسبة لك.. لا تنس أن لي طفلًا في الثامنة من عمره. فماذا نفعل معًا؟

فهتف قائلًا:

– اللعنة على كل شيء.. نفعل ما يفعله الأزواج والزوجات في كل الدنيا.

فقالت بلهجة لا تخلو من الاستياء:

– إذا كنت تظن أن الحياة مجرد علاقات جنسية بين الأزواج والزوجات، فأنت مخطئ قليل التجارب. إن أعباء الحياة الزوجية تنتزع البهجة من كل علاقة جنسية. إنني أصبحت أنظر إلى الحياة نظرة جادة. حقًّا أن البحث عن المتعة شيء بهيج، ولكن ثمنه غال جدًّا.. ثم كيف أربي ولدي بالانغماس في اللهو والمتعة؟ لقد تعلمت من سوء حظي درسًا لا أنساه. وهذا الدرس يحتم علي أن أنفض يدي من الرجال نهائيًّا.. نعم، لن أسمح لرجل أن يوقعني في الفخ مرة أخرى.

وكانت تتحدث ببساطة وواقعية دون أن تجعل في صوتها أي أثر للمرارة أو الغضب، تمامًا، كما لو كانت تتحدث عن كيفية إزالة بقعة حبر من قميص.

وقال كوبيو مرددًا في رفق:

– لشد ما تحزنينني بحديثك هذا..!

– نعم.. إنني أرى هذا على وجهك، وأني لأسفة من أجلك يا مسيو كوبيو. أرجوك ألا تسيء فهم حديثي. فلو كانت بي أية رغبة للزواج لتزوجتك أنت دون غيرك. فأنت لطيف معي دائمًا، وطيب القلب كما أرى. وأعتقد أن في إمكاننا أن نعيش سعيدين لو تزوجنا. ولكنني لا أشعر بأية رغبة في الزواج. بل لا أريد أن أغير مجرى حياتي الرتيبة الهادئة الآن. إنني أعمل منذ أسبوعين في محل مدام فوكوفير للغسيل والكي، وولداي في المدرسة، ونحن نجد ما نأكله الآن دون أن نضطر إلى رهن ملابسنا، وأنا لا أريد من الحياة أكثر من هذا.

ثم انحنت لتتناول سلة الغسيل، وأردفت قائلة:

– لقد حجزتني لتتحدث معي بينما تنتظرني مدام فوكوفير. هلم يا صديقي لا شك أنك ستجد فتاة أجمل مني بكثير، وليس لها أولاد مثلي..

ونظر كوبيو إلى الساعة الكبيرة المعلقة على الجدار، ثم قال، وهو يمسك يدها ليحتجزها:

– انتظري لحظة أرجوك.. إن الساعة لا تتجاوز الحادية عشرة وخمسًا وثلاثين دقيقة. ويزال أمامي نحو نصف ساعة حتى أعود إلى عملي.. اجلسي معي برهة أخرى، وأنا أعدك بأن أكون مهذبًا معك. أن المائدة بيننا كما ترين.. أم لعلك تكرهين الجلوس معي.

وأعادت السلة إلى مكانها حتى لا تبدو غليظة في معاملتها له، ثم أخذت تبادله حديثًا وديًّا بعيدًا عن الحب والغزل والزواج. وكانت هي أثناء هذا الحديث تنظر من النافذة إلى جموع العمال والعاملات، وهم يتدفقون في الطرقات إلى المطاعم والحانات، ليتناولوا وجبة الظهيرة.

وتحول الحديث إلى لانتيير، وقالت جرفيز ردًّا على سؤال من كوبيو:

– لا تكن سخيفًا. إنك تفكر فقط في هذه العلاقة الحيوانية، كنت أحبه طبعًا. ولكن بعد أن هجرني بهذه الطريقة الوحشية..

ولم تكن جرفيز قد رأت لانتيير منذ أن هجرها. ولكنها أيقنت من مصادر عديدة أنه يقيم مع أديل – أخت فرجيني – في شارع لاجلاسيير، وفي بيت صديق له كان ينوي أن ينشئ مصنعًا للقبعات، ولم يكن لديها أي

استعداد، لأن تذهب إليه أو تطارده، أو تحاول استرداده. لقد حزنت في أول الأمر حزنًا شديدًا. بل لقد فكرت جديًّا في إلقاء نفسها في النهر. ولكنها لم تلبث أن أدركت أن ما حدث في صالحها وصالح الولدين. لقد عرفت لأول مرة، بعد غيابه، معنى الاستقرار.. معنى اكتساب الرزق بالعمل الشريف. ولعلها ما كانت لتستطيع أن تربي ولديها لو أنه بقى معها متلافًا مسرفًا عاطلًا! إن من حقه أن يأتي إذا أراد لرؤية ولديه منها، كلود واتيين. إنها لن تمنعه. أما هي، فلن تسمح له بأن يلمسها بأطراف أصابعه. نعم.. هذا هو رأيها النهائي.. وهذه هي الخطوط الرئيسية التي رسمتها لحياتها في المستقبل.. أن تعمل.. وتربي ولديها.. ولا تسمح للانتيير بلمسها مرة أخرى، ولا أي رجل أن يكرر العبث بها.

وكان كوبيو ينصت إليها ويبتسم، ويقاطعها بين الحين والآخر ببعض العبارات المثيرة للضحك، ولكنه لم يكف لحظة واحدة عن اشتهائها، وعن اللهفة إلى أخذها بين ذراعيه.

وقال لها باسمًا:

– لقد كنت أنت القاسية معه.. كنت تضربينه كما تضربين كل من يثير غضبك!!

وانفجرت هي في ضحكة جزلاء، وتذكرت ضربها لتلك الفتاة الكبيرة الجسم فرجيني، وكانت تشعر أنها على استعداد لأن تضرب أي إنسان آخر يثير غضبها. وكان كوبيو قد ذكر لها أن فرجيني، بعد فضيحة هزيمتها في المغسل، تركت الحي كله، واختفت .

وهزت رأسها، ومدت يديها البضتين، وقالت لكوبيو أنها لا تستطيع في الواقع أن تضرب أحدًا بمثل هاتين اليدين الناعمتين، ولكنها لا تدري كيف استطاعت أن تضرب فرجيني بمثل هذه الثورة. ثم راحت عن طفولتها في بلدة بلاسان، فقالت أنها لم تكن واحدة من اللاتي يجرين وراء الرجال. ولكن عندما اغتصبها لانتيير وهي في الرابعة عشرة من عمرها، شعرت بابتهاج لأنه وعدها بالزواج، وقال إنها تعتبر منذ تلك اللحظة زوجته الحبيبة الصغيرة. وكانت منذ طفولتها – كأية طفلة عادية – تحلم بأن تكون زوجة وربة بيت. ثم قالت إن ما حدث لها كان نتيجة طبيعية لرغبتها في استرضاء الناس، وفي أن تكون دائمًا على وفاق معهم، ومن ثم فهي إذا أحبت رجلًا. فإنها لا تحبه لكي تلهو معه، وإنما لتكون زوجة له. ولما ضحك كوبيو وذكرها بولديها قائلًا إنها طبعًا لم تعثر عليهما بجوار الكنيسة، ركلته برفق في قدمه، وقالت إنها لا تنكر أبدًا أنها مصنوعة من نفس طينة البشر، وأن لها رغباتها ونزواتها وأشواقها التي تشكل حياتها. ولكن من الخطأ أن يظن أحد أن المرأة لا تفكر إلا في العلاقة الجنسية.. مثلها مثل أمها، كانت تحلم بالحياة الزوجية وإدارة البيت واكتساب الرزق بالعمل الشريف. وقد كانت أمها من هواة العمل واكتساب الرزق بعرق الجبين. وقد ماتت وهي تضع طفلها السابع ثم تحدثت عن زوج أمها، العجوز ماكارت، السكير، الذي اعتاد أن يضرب أمها في كل ليلة، وهو سكران، حتى حطم حياتها. وقد أصابتها وهي طفلة، إحدى ضرباته على فخذها، ومنذ ذلك الحين وهي تعرج. وعندئذ قال كوبيو مجاملًا:

– تأكدي أن أحدًا لا يكاد يلحظ أنك تعرجين..

ولكنها هزت رأسها وقالت إنها تعلم تمامًا أن عرجها ملحوظ، وإنها حين

تبلغ الأربعين من العمر ستكون محنية القامة. ثم ضحكت وأردفت قائلة:

– من العجيب أن تحب امرأة عرجاء يا مسيو كوبيو.

وهنا ازداد انحناء عليها، وراح يصب في أذنيها سيلًا من حديث الهوى ليجتذب عواطفها. ولكنها صمدت في موقفها.. وكانت تنظر من النافذة، وتنصت إلى حديثه بأذن واعية.. راضية.. وما كان في مقدورها، أو مقدور أي امرأة في مثل ظروفها، أن تغضب من نفحات الحب، وهي تتهادى إلى سمعها.

وأقبل في تلك اللحظة ثلاثة عمال، كان أحدهما – ويدعى ميبوتس – صديقًا لكوبيو.. وبعد أن تبادل معه حديثًا خاطفًا، انضموا – العمال الثلاثة – إلى رواد الحانة.. وكانت قد بدأت تزدحم ورائحة الخمر تزداد في الجو، مما جعل جرفيز تقول في امتعاض بصوت خافت:

– إن الاسراف في شرب الخمر شيء فظيع.

ثم قالت إنها اعتادت في بلدتها بلاسان أن تشرب خمر الانسيت، ولكنها مرضت منها وكرهتها، وكرهت كل أنواع الخمور.. ثم أشارت إلى الكأس الموضوعة أمامها وقالت:

– وهذا هو السبب في أني تناولت المشهيات المصاحبة للكأس دون أن أشرب إلا جرعة صغيرة.

وقال كوبيو، بدوره، أنه لا يدري كيف يستطيع بعض الناس أن يشربوا الكأس بعد الكأس، وكأن في أعماقهم بالوعة لا تمتلئ. ثم أردف قائلًا إنه

يشرب النبيذ بين الحين والآخر، أما الكحوليات المركزة مثل الابسنت والبراندي وغيرها فإنه لا يطيق شربهما مهما تعرض لسخرية إخوانه وزملائه وتندرهم عليه. ولهذا اعتاد أن ينتظر أصدقاءه خارج الحانة حتى يفرغوا من ملء بطونهم بالكحوليات المركزة، ثم قال أن كراهيته للخمر ترجع إلى أن أباه – الذي كان سباكًا مثله – سقط وهو سكران، أثناء عمله في سطح المنزل رقم ٢٥ بشارع كوكينارد وتحطم رأسه على الإفريز، ومات لساعته. ومنذ ذلك الحين وهو – أي كوبيو – لا يمر بالشارع الذي وقعت فيه الحادثة.

واختتم حديثه قائلًا:

– إن مهنتي تحتاج إلى رجل لا يفقد وعيه بالخمر.

وقالت جرفيز بعد أن أثارت كلماته في نفسها مختلف الذكريات والأفكار:

– إنني كما تعلم متواضعة في آمالي ومطامحي. وكل ما أرجوه من الحياة أن أعمل بهدوء، وأن أجد خبزي اليومي، وأن أنام في ركن نظيف. في غرفة بسيطة بها سرير نظيف ومائدة وبضعة مقاعد وصوان ملابس ومدفأة. لا أريد أكثر من هذا. لا أريد أكثر من أن أربي ولدي تربية صالحة.. وإذا حدث وعشت مع زوج، فلا أطمع في أكثر من أن أعيش معه بهدوء وسلام.

وتوقفت عن الحديث لحظة، كأنما تفكر فيما تريد من الحياة أكثر من هذا.. ولم تجد، أردفت قائلة:

– نعم.. لا أريد إلا أن أموت في نهاية عمري، وأنا راقدة في سرير نظيف. وحسبي ما لقيته حتى اليوم من عناء الحياة.

ثم تناولت سلتها، ونهضت واقفة. ونظرت إلى الساعة في قلق، ثم إلى الحاجز الخشبي الذي تقوم وراءه آلة تقطير الخمر الهائلة. وراح كوبيو يشرح لها طريقة عمل هذه الآلة الجهنمية في تقطير الخمر، وتعبئتها في زجاجات. وارتعدت جرفيز قليلًا وهي تنظر إلى جهاز التقطير، ثم قالت:

– إنني أشعر بالخوف يسري في دمائي، وأنا انظر إلى هذا الجهاز الذي حطم حياة عدد لا يحصى من الرجال والنساء.

ثم عادت إلى الحديث عن رأيها في السعادة الكاملة، فقالت:

– ألا تتفق في الرأي معي؟ ألا ترى أن أحسن شيء في الدنيا يجلب السعادة للإنسان هو أن يجد الإنسان عملًا يرتزق منه، وأن يحصل على خبزه اليومي، وأن يرقد في ركن نظيف، وأن يربي أولاده، ثم يموت في فراشه.

وقال كوبيو مكملًا في مرح:

– وألا يتعثر في حياته، ويرهن ملابسه ليحصل على ثمن الخبز أو الخمر!

حسنًا يا مدام جرفيز.. يمكنني أن أحقق لك هذه الأمال البسيطة.. هلم نعقد زواجنا الليلة، ونبدأ حياتنا من جديد!

وكان يهمس بهذا الحديث في أذنها، وهما يغادران الحانة، وقد أمسكت سلة الملابس في يدها. وهزت هي رأسها وقالت بإصرار:

– لا. لا.

ولكنها كانت تبتسم وتعرب له عن رضائها؛ لأنه لا يشرب الخمر مثل

زملائه من العمال. لولا أنها أقسمت ألا تعاشر الرجال، لقبلت في تلك اللحظة اقتراحه، وتزوجته.

ولما وصلت إلى الشارع، قالت وهي تتنهد في ارتياح:

– آه. الآن أستطيع أن أتنفس مرة أخرى.

ثم مدت يدها تصافحه، وأردفت قائلة:

– طاب يومك يا مسيو كوبيو.. وشكرًا.. يجب أن أعود إلى المحل الآن.

وقبل أن تنصرف، أمسك يدها، وقال في رجاء:

– مهلًا.. أرجوك أن تبقى معي لحظات أخرى.. سيرى معي إلى المحل عن طريق لاكوت دور.. إن المسافة ليست بعيدة.. إنني سأزور أختي في ذلك الشارع قبل أن أعود إلى عملي في بناء المستشفى، ويمكننا أن نتمشى معًا هذه المسافة.

ووافقت أخيرًا. وسارا معًا في شارع دي بواسونير، جنبًا إلى جنب، ولم تقبل أن يأخذ ذراعها في ذراعه، وإنما أخذت تنصت إليه وهو يتحدث عن أسرته. إن أمه العجوز – الخياطة سابقًا – تشرف على إدارة المنزل بعد أن كل بصرها. لقد بلغت الثانية والستين في الشهر السابق.. وهو أصغر أختيه: أحدهما أرملة تدعى مدام ليرات في السادسة والثلاثين من عمرها، وتعمل في صناعة الزهور الصناعية وتقيم بمسكن في شارع دي موان. والأخرى في نحو الثلاثين، وتدعى مدام لوريليو، امرأة سليطة اللسان، تقيم مع زوجها صائغ السلاسل الذهبية في مسكن بشارع لاكوت دور. ومسكنها يقع في بيت

هائل الحجم على يمين الشارع، وقد اعتاد أن يتناول عشاءه كل ليلة مع أخته هذه وزوجها توفيرًا للنفقات. فهو يدفع لهما أقل مما يدفعه لو تناول عشاءه في مطعم، وهما يقدمان له من الطعام أقل مما يعطيهما في الشهر. وهو ذاهب إلى بيت أخته الآن ليقول لها أنه لن يتناول عشاءه معها الليلة، لأنه مدعو للعشاء مع صديق.

وتوقف فجأة في شارع كوت لادور بعد أن قطعا منه نحو مائة ياردة، وأشار إلى بيت هائل الحجم وقال:

– هذا هو البيت. إنه يبدو من الداخل كالثكنة العسكرية.

ونظرت جرفيز إلى البيت تفحصه من الخارج. وكان مكونًا من خمسة طوابق، في كل طابق خمس عشرة نافذة في خط مستقيم، ذات مصاريع خشبية سوداء مهمشة. وفي الطابق الأرضي، على الشارع خمسة دكاكين، كلها على يمين المدخل. اثنان منها مطعم قذر. والثالث لفحام، والرابع لتجارة الخردوات، والخامس لبيع المظلات. ولفت نظر جرفيز مدخل البيت. وكان مدخلًا ضخمًا يرتفع إلى الطابق الثاني ويؤدي إلى فناء واسع مظلم.

وقال لها جرفيز:

– تعالي معي.. إن أختي لن تأكلك.

وطلبت منه أن تنتظره في الشارع حتى يعود، ولكنه ألح عليها في الصعود معه. إلا أنها وافقت فقط على أن تدخل معه إلى الفناء وتنتظره. وفي الفناء، وقفت مذهولة تتلفت حولها إلى الدكاكين الداخلية التي كانت بمثابة مصانع صغيرة للحدادة والسباكة وغيرها من الحرف اليدوية البسيطة:

ولاح لها أن سكان البيت يعيشون في داخله، وكأنهم داخل مدينة صغيرة لا شأن لها بمدينة باريس الهائلة.

وخرجت من غرفة البوابة، امرأة في مقتبل العمر، وقالت لها وهي تفحصها في ارتياب:

– هل تريدين شيئًا يا فتاتي؟!

– لا.. إنني أنتظر شخصًا.

ثم عادت تفحص بنظرات ملؤها الدهشة ذلك العالم الصغير القائم، في ذلك البيت العجيب. ولم يلبث أن عاد كوبيو لاهث الأنفاس وهو يقول لها معتذرًا:

– هل تأخرت عليك؟! لقد بذلت جهدًا عنيفًا لإقناع أختي للموافقة على تناولي العشاء في الخارج الليلة، لا سيما وقد اشترت كمية من لحم البقر خاصة لي.

ولما رأى دهشتها وهي تنظر إلى المنزل، قال:

– من حقك أن تدهشي.. لا سيما إذا علمت أن كل ركن فيه مؤجر لبعض العمال أو العائلات. وإن عدد المستأجرين يبلغ ثلاثمائة. وهو بيت يبعث على الطمأنينة والأمن.. ولو كان لدى بعض الأثاث، لاستأجرت لنفسي فيه مسكنًا صغيرًا.. إن الإنسان لا يشعر فيه بالسأم أبدًا.

فقالت جرفيز وهي تومئ برأسها:

– نعم.. إن بلدتنا بلاسان لا يوجد في شارع منها مثل هذا العدد من السكان.

وانتهز كوبيو الفرصة، وعاد يعرض عليها الزواج والسكنى في هذا البيت المزدحم المليء بالحياة. ولكنها هزت رأسها، وأسرعت بالانصراف.

* * *

ولكن كوبيو لم ييأس.. لقد ظل يطاردها برغبته في الزواج منها حتى أصبحت تخشاه، وتضع وراء باب غرفتها في الفندق خزانة الأدراج خوفًا من أن يقتحم عليها الغرفة ذات ليلة ويغتصبها. ومرت الأسابيع وهو لا يكف عن إلحاحه، وهي لا تكف عن الرفض. وفي ذات ليلة من شهر أغسطس ظلا جالسين في غرفتها حتى الساعة الواحدة صباحًا، في ضوء سراج خافت، يتناقشان في نفس الموضوع بأصوات خافتة حتى لا يستيقظ كلود وأتيين النائمين في هدوء.

وكانت جرفيز تثير دائمًا موضوع الطفلين، وتصر على أن رسالتها في الحياة هي أن ترعاهما وتحسن تربيتهما حتى يشبا مواطنين صالحين. وكانت في هذا الشأن تقول:

– إنها ورطة عجيبة أقدمها لك؟ أليس كذلك. ماذا يقول الجيران؟ إنهما جميعًا يعرفون علاقتي السابقة بلانتيير.. يعرفون أنني أنجبت ولدي سفاحًا.. فكيف أن أقبل الزواج من شاب مهذب لطيف مثلك بعد بضعة شهور من هجره لي؟

ويرد عليها قائلًا إنه لا يهمه كلام الجيران، إنه لا يتدخل في شئونهم، وكل شئونهم قذرة، وليس من حق أحد أن يتدخل في شئونه هو. وحتى لو أنها كانت على علاقة بلانتيير قبله، فماذا في هذا؟ إنها علاقة كانت أقرب

إلى الزواج منها إلى أي شيء.. إنها لم تبع جسدها كل ليلة لرجل مختلف. لقد كانت تعيش كما لو كانت زوجته فعلًا أمام الله والناس.. وهذا وحده يكفي.. ومن ناحيته هو، فإنه لن يجد أبدًا فتاة مثلها. فتاة رقيقة، مهذبة، مخلصة، طيبة القلب، متواضعة الآمال.

وأخيرًا ضرب المائدة بيده، وقال:

– إنني أريدك. أريد زوجة لي. ألا تفهمين. إن سعادتي في الحياة معلقة على كلمة منك..

وأخذت جيرفيز تلين شيئًا فشيئًا. وسمحت له بأن يمسك يديها بين يديه. وساد الصمت برهة. لم يكن يقطعه إلا عازف قيثارة من بعيد.. وإلا بكاء سكير في الطريق.. كان يبكي كطفل.

وضغط كوبيو برفق على يديها، ثم قال في توسل:

– جرفيز. أرجوك. لماذا تعذبينني إلى هذا الحد. ألا ترين أنني أحبك، وأنني على استعداد للتضحية بكل شيء من أجلك؟

وأطرقت برأسها. وقال هو:

– هه. نعم.. أم لا؟!

وغمغمت قائلة :

– أشد ما تعذبني بحبك يا كوبيو؟ حسنًا. إذا لم يكن لي مفر من الزواج. فلتكن أنت الزوج. وأرجو ألا أكون قد ارتكبت بموافقتي هذه، حماقة أخرى.

ونهض واقفًا، وأمسك بوسطها، وقبلها بحرارة، وقالت وهي تختلس النظر إلى ولديها النائمين:

– حذار.. لا تزعجهما من النوم.

وعاد هو إلى غرفته بأعلى الفندق. وبقيت هي في فراشها ترتعد. وهي تفكر في الأمر، وقد أقنعت نفسها أن كوبيو جاد في عرض الزواج عليها.. فقد كان في استطاعته أن ينتهز ضعفها في تلك الليلة وينالها. وعدم انتهازه هذه الفرصة دليل على جديته في الزواج منها.

وظل السكير في الشارع يبكي كحيوان ضال.. بينما أنغام القيثارة تتهادى من الحانة القريبة

الفصل الرابع

ألح كوبيو لأيام على جرفيز، لكي تلتقي بأخته بشارع كوت لادور. ولكن جرفيز كانت شديدة الاضطراب، وتخشى مقابلة مدام لوريليو. لأنها قد أدركت بوضوح أنها مصدر خوف الأسرة كلها. وعبثًا حاول أن يقنعها بأن زواجه ليس من شأن أخته هذه، بل أنها أيضًا ليست الأخت الكبرى، ومن ناحية أمه فقد وافقت على زواجه فورًا، لأنها اعتادت ألا تعارض ابنها في شئونه الخاصة. أما آل لوريليو فقد كانوا يعتبرون أنفسهم رأس الأسرة، لأن أرباحهم اليومية كانت تتجاوز العشرة فرنكات. وبهذا لم يكن في مقدور كوبيو أن يتجرأ ويتزوج بدون موافقتهم.

وقال لجرفيز في معرض الإقناع:

– لقد تحدثت معهم عنك. وهم يعرفون الآن كل ما نريد أن نفعل، تعالي لتتعرفي بهم الليلة. إنك على استعداد لهذه المقابلة. أليس كذلك؟ إن أختي قد تبدو باردة بعض الشيء. ولوريليو أيضًا ليس من الطراز المرح اللطيف. وهما في الواقع مستاءان لأن زواجي سيحرمهما من المبلغ الذي اعتدت أن أدفعه نظير عشائي معهما. ولكن هذا لا يهم. إنهما لا يستطيعان أن يطردانك من مسكنهما. أرجوك أن تزوريهما من أجلي. إن هذه الزيارة ضرورية جدًّا.

ولكن هذه الكلمات زادت من فزع جرفيز. إلا أنها استسلمت ذات ليلة، وكانت ليلة سبت. وكانت قد استطاعت خلال الأسابيع القليلة

السابقة أن تدخر مبلغًا بسيطًا اشترت به ثوبًا لائقًا، ومطرفًا حريريًّا جميلًا، وحذاء جديدًا، وقبعة. وقال لها كوبيو وهو يصحبها في الطريق إلى بيت أخته:

– إنهما في انتظارك. ويبدو أنهما خضعا لفكرة زواجي. ومن حسن الحظ أنهما في حالة معنوية طيبة الليلة؛ لأنهما تلقيا طلبًا لصنع مجموعة من السلاسل الذهبية تسلم يوم الإثنين.

– وهل لديهما الذهب في المسكن؟

– أعتقد هذا.. إن أسلاك الذهب معلقة على الجدران، وفوق الأرضية وفي كل مكان.

وصعدت جرفيز مع كوبيو درجات البيت الكبير في طريقهما إلى الطابق السادس. وشعرت برأسها يدور وهي تصعد مجموعة من الدرجات، ثم تسير في دهاليز مختلفة، ثم تصعد مجموعة أخرى، وهكذا.. وكانت الروائح المختلفة تتصاعد من كل مكان، وغمغمة السكان تنساب من وراء الأبواب المغلقة مصحوبة بصلصلة الأطباق والملاعق والسكاكين وأواني الطهو.

وبعد رحلة شاقة من الصعود والمرور في الدهاليز المظلمة الرطبة، قال كوبيو وهو يمسك بيد جرفيز:

– لقد وصلنا أخيرًا.. كوني على حذر، والتزمي جانب الجدار، لم يبق أمامنا غير ثلاث درجات.

وسارت جرفيز في حذر، ولكنها تعثرت مرتين قبل أن تصل إلى الدرجات

الثلاث المؤدية إلى باب مسكن آل لوريليو. ودفع كوبيو الباب دون أن يطرقه، وسقطت حزمة من الضوء على الممر، ثم سار فيما يشبه الدهليز الضيق مع جرفيز حتى وصل إلى ستار أزاحه بيده، ودخل إلى غرفة كبيرة منقسمة بحاجز خشبي إلى قسمين: أحدهما للنوم، والآخر للعمل.

ورأت جرفيز رجلًا قصيرًا بدينًا جالسًا إلى منضدة عليها الكثير من أدوات الصياغة، وأمامه عدد من الحلقات الذهبية، وبجواره كور مضطرم النيران، وعلى مقربة منه سيدة بدينة قصيرة أيضًا جامدة الملامح، ممسكة بسلك ذهبي تعمل على شده وسحبه.

وقال كوبيو في مرح وهو يتقدم نحو أخته وزوجها:

– ها نحن وصلنا.

ولكنه لم يتلق ردًّا في أول الأمر. وزادت إحساس جرفيز بالاضطراب، لا سيما حين وجدت نفسها في هذا المكان "الذهبي" فحرصت على السير وراء كوبيو مباشرة. وبعد برهة من الصمت الثقيل، قالت مدام لوريليو:

– آه.. أهذا أنت.. إننا مشغولان جدًّا كما ترى، لا تتقدم خطوة أخرى حتى لا تلتصق ذرات الذهب بنعل حذائك.. ابق حيث أنت.

ثم أردفت قائلة بعد برهة أخرى من الصمت الثقيل:

– حسنًا.. يمكنك أن تجلس مع فتاتك على المقعد الذي بجوارك أهذه هي السيدة.. حسنًا.. حسنًا..

وجلس كوبيو مع جرفيز على مقعد مستطيل، وراح يرقب أخته وزوجها

وهما منهمكان في العمل، وقد تفصد العرق على جبينهما. وظل السكون مخيمًا إلا من أزيز الكور ومن حسيس المعادن والآلات. وغمغم لوريليو ببضع عبارات عن طبيعة عمله، وعن طول الأسلاك التي صنعهما من الذهب، ولكن الحديث لم يتحول إلى موضوع الزواج، ومن ثم شعرت جرفيز بالملل والاختناق، فجذبت كوبيو من طرف كمه، وهمست تطلب منه الانصراف. ونهض كوبيو قائلًا لزوج أخته:

– لسوف أعتمد عليك يا لوريليو لتكون شاهدًا عند زواجي. وأرسل لوريليو ضحكة قصيرة متظاهرًا بالدهشة، بينما تركت زوجته عملها، وتسمرت في وسط الغرفة، وقد وضعت يديها في خاصرتيها. وقال لوريليو في النهاية:

– إذن فأنت جاد في موضوع الزواج يا كوبيو؟ الواقع أنك عودتنا على ألا نعرف جدك من هزلك..

وقالت مدام لوريليو بصوت أجش بارد:

– أهذه هي السيدة إذن؟ يا إلهي! إننا من جانبنا لا نستطيع أن نقول شيئًا. ولكن الزواج ليس بالأمر الهين.. أن احتمال النجاح فيه ضعيف.. ضعيف جدًّا.. هذا هو كل ما يمكن أن نقوله في هذا الشأن.

ثم راحت تفحص جرفيز من رأسها إلى قدميها قبل أن تستطرد قائلة:

– إن لك الحرية الكاملة يا أخي.. وإن كانت الأسرة تفضل.. حسنًا.. لا داعي للحديث في شيء تقرر.. إن الإنسان لا يصنع قدره بنفسه. ولو أنك أردت الزواج من أحقر امرأة في باريس لما اعترضت عليك. فهذا شأنك.

المهم أننا لم نقصر في حقك.. إنك الآن في أحسن حال.. ممتلئ الجسم صحة وشبابًا..

– ألا ترى يا لوريليو أن هذه السيدة تشبه تيريز.. جارتنا التي ماتت بالسل في الأسبوع الماضي؟!

ورد زوجها قائلًا:

– نعم.. إن الشبه واضح تمامًا.

وقالت المرأة:

– وهناك طفلان يا مدام.. والواقع أنني لا أفهم كيف يغامر أخي ويتزوج سيدة لها طفلان.. وعدا هذا فأنت صحتك لا تبدو في أحسن حالا.. أليس كذلك يا لوريليو؟

– نعم.. نعم.. إن صحتها لم تكن على ما يرام.

ولما رأى كوبيو إثر هذه الكلمات اللاذعة على جرفيز، صاح قائلًا في تحد واحتجاج:

– إن حديثكما لا يقدم أو يؤخر في الموضوع. لسوف يتم الزواج يوم السبت مساء في التاسع والعشرين من يوليو.. هذا هو قراري النهائي..

فقالت أخته بلهجة أقل جفاء:

– حسنًا.. حسنًا.. سوف نحضر حفل الزواج، وسيكون لوريليو شاهدًا على عقد الزواج. طابت ليلتكما.

وقالت جرفيز بصوت باك حين وصلت إلى الشارع مع كوبيو:

– إن أختك وزوجها ساخطان على زواجنا أشد السخط.

فقال كوبيو في حدة:

– إن هذا لا يهمنا في شيء.. إني لست قاصرًا، ولست معتمدًا في معاشي على أحدهما..

وأصر كوبيو على أن يتم الزواج باحتفال فاخر في الكنيسة، تعقبه حفلة عشاء جميع الأصدقاء والأقارب. وعبثًا حاولت جرفيز أن تثنيه عن هذا الإصرار. وأخيرًا تم له ما أراد.. وخرج من حفلة الزواج مدينًا بمائتي فرنك.

* * *

ومضت أربعة أعوام من العمل الشاق المتصل، وأصبح لكوبيو وجرفيز سمعة طيبة بين الجيران. ذلك أنهما كانا قليلي الاختلاط، وكانا يقضيان أيام الآحاد والعطلات الرسمية في الرحلات الخلوية، وكانت جرفيز تعمل في اليوم اثنتي عشرة ساعة بمحل مدام فوكوفير للغسيل والكي. ومع هذا كانت تدير حياتها المنزلية على أحسن وضع، وتدير أمور الأسرة بحيث يجد أفرادها الطعام معدًّا في الصباح والمساء. وكان كوبيو يعمل بدوره دون أن يلقى بأجره في كئوس الخمر، وإنما كان يسلم لزوجته أجر عمله كل أسبوعين، ثم يقضي أمسياته بجوار النافذة يدخن "البايب" قبل أن يذهب إلى فراشه. ولما كان المعروف أنهما يكتسبان معًا نحو تسعة فرنكات في اليوم، فقد أدرك الجيران أنهما ولا شك يدخران مبلغًا لا بأس به. ولكن الحقيقة هي أنهما لم يدخرا في هذه السنوات الأربع شيئًا كثيرًا. ذلك أنهما عمدا في أول الأمر إلى تسديد ديون حفل الزواج.

وفي العام الثالث، تقدم رجل محسن من هواة الفنون الجميلة في بلدة بلاسان، وطلب منهما أن يتبنى الابن كلود حين آنس منه نبوغًا فطريًّا في فن الرسم. ورحبت جرفيز بهذا الطلب، لأن كلود كان يكلفها الشيء الكثير من النفقات. وأما أتيين، فكان عبؤه، بمفرده خفيفًا. وبعد تسديد الدين، بدءا يفكران جديًّا في الانتقال من فندق بونكير للإقامة في مسكن خاص نظيف..

ولكن المسكن النظيف يحتاج إلى أثاث ومفروشات نظيفة.. وهذه بدورها تحتاج إلى مبلغ من المال لا يقل عن مائة وخمسين فرنكًا.. وادخار هذا المبلغ يستلزم المزيد من العمل وبذل الجهد.

وفي أقل من عامين استطاعا أن يدخرا هذا المبلغ، وأن يتعاقدا على شراء ما يحتاج إليه مسكن نظيف من أثاث ومفروشات ورياش. ولم يبق إلا استئجار هذا المسكن.

وظلا شهرين ينتظران أن تخلو شقة صغيرة في البيت الكبير بشارع لاكوت دور. ولما خامرهما اليأس من تحقيق ها الأمل، قررا البحث عن مسكن آخر لا يكون بعيدًا عن محل مدام فوكوفير الذي تعمل به جرفيز. وساعدهما الحظ في العثور على بغيتهما..مسكن بشارع نيف دي لاكوت دور. مكون من غرفتين صغيرتين والمرافق، وكان يقع في منزل صغير يواجه – تقريبًا – محل مدام فوكوفير. وكان الطابق الأول من المنزل عبارة عن مربط ومخزن لمركبات وجياد الركوب. والطابق الثاني يتكون من المسكن الصغير، ويقابله مسكن آخر مماثل فيه شاب حداد وأمه عجوز. وكانت النافذة

الخلفية للمسكن تطل على الحقول مما أسعد قلب جرفيز، لأنها أحست مرة أخرى أنها انتقلت إلى بلدتها بلاسان.

وتم الانتقال إلى المسكن الجديد في إبريل. وكانت جرفيز حاملًا في شهرها الثامن. ولكنها لم تتردد في بذل ما تستطيع من جهد قائلة وهي تضحك: إن هذا الجهد سوف يخفف عنها آلام الوضع.

وعاشا سعيدين في مسكنهما الجديد الصغير، وكان لاتيين سرير خاص في إحدى الغرفتين. وكان ثمة مكان لسرير آخر للمولود المنتظر، وقد جاء هذا المولود المنتظر بنتًا أطلقا عليها اسم "نانا". وقال كوبيو وهو يحملها في رفق بين يديه:

– حمدًا لله.. كنت أتمنى أن يكون مولودنا الأول بنتًا.. وقد استجابت الأقدار لأمنيتي.

وفي الاحتفال بتعميد الطفلة، تعرفت جرفيز وكوبيو لأول مرة بجيرانهما آل كوجيت.. الحداد الشاب وأمه العجوز. لقد دعتهما جرفيز إلى المأدبة التي أقامتها بهذه المناسبة، والتي دعت إليها مدام كوجيت العجوز، ومدام ليرات، ومدام لوريليو وزوجها وبعض الأصدقاء. وكانت مدام كوجيت العجوز وابنها وافدين من مقاطعة الشمال بفرنسا، وكانت الأم تعمل في تطريز الأقمشة وصناعة المخرمات. سيدة في نحو الستين من عمرها، هادئة السمات، باسمة الوجه. وكان كوجيت شابًا في الخامسة والعشرين ضخم الجسم، ذهبي الشعر واللحية، على جانب كبير من البساطة والحياء، وكأنه عذراء ريفية.

وشعرت جرفيز منذ اللحظة الأولى بالميل إلى جاريها هذين. وقد دهشت عندما زارتهما لأول مرة من نظافة المسكن وحسن ترتيبه وتنسيقه. ذلك أنها لم تشاهد على الأرضية اللامعة أو على الزجاج بقعة واحدة. ولما أخذتها مدام كوجيت إلى غرفة ابنها، رأتها جرفيز نظيفة ناصعة البياض كأنها غرفة عذراء.

وازدادت أواصر الصداقة بين آل كوجيت وآل كوبيو، وكان آل كوجيت يعملان طيلة النهار ويكتسبان الرزق بالجهد والعرق، ويدخران ما يفيض عن حاجاتهما في البنك. وكان الجيران يكنون كل احترام وتقدير. أما كوجيت الشاب، فكان يبدو دائمًا نظيفًا خارج عمله.. فلم يحدث يومًا أن خرج من مسكنه، أو عاد إليه بقميص ملوث أو ممزق. ولم يحدث يومًا أن رفع عينيه الزرقاوين إلى امرأة في الطريق.. ومن ثم كانت النسوة الغسالات وحاملات المياه إلى المنازل يتغامزان عليه في منعطف الطريق كلما مر أمامهن، ثم يتبادلن الضحكات قائلات إن الشاب "البكر" في حاجة إلى امرأة لعوب تعلمه كيف يخرج من "عذريته" ليكون رجلًا كامل الرجولة؟

ولم يكن الشاب يسرف في شرب الخمر.. وإنما كان يشربها بين الحين والآخر، وقد حدث ذات ليلة أن عاد إلى أمه مخمورًا. ولم تعاتبه أو تصب عليه باللوم، وإنما وضعت أمامه صورة أبيه. وسرعان ما أفاق من سكره حين رأى الصورة وتذكر مأساة أبيه. أي حين تذكر أن أباه قتل زميلًا له في دكان الحدادة بالمطرقة، وكان مخمورًا، ثم مات في السجن.ومنذ ذلك الحين كان يشرب دون أن يفقد وعيه.

وفي أيام الآحاد كان يصحب أمه إلى نزهة خلوية، ثم يعود معها سعيدًا أيضًا. ولم يكن الشاب، في الواقع، وفي نظر جرفيز، يزيد على طفل كبير رغم ضخامة جسمه وقوة عضلاته..

وظل كوجيت يشعر بالخجل من جرفيز بضعة أسابيع يعتقد أن تعرف بها. ولكنه لم يلبث أن أخذ يألفها تدريجيًّا، فكان ينتظر عودتها ليحدثها عن عمله في مصنع الحدادة، أو يجلس معها يبادلها الحديث كأخت. وقد حدث ذات مساء أن دخل مسكنها دون أن يطرق الباب، وفوجئ بها تغسل وجهها وعنقها وهي بملابسها الداخلية. وتراجع بسرعة. وظل أسبوعًا لا يستطيع أن يرفع عينيه إليها إلا إذا اضطرم وجهه خجلًا.

وكان كوبيو، بغروره الباريسي، ينظر إليه على أنه شاب أبله غرير، وأنه ناقص الفحولة. حقًّا إن الامتناع عن الجري وراء النساء شيء لا بأس به — أخلاقيًّا – ولكن الرجل – في رأي كوبيو – يجب أن يكون رجلًا !! وإلا فالأجدر به أن يرتدي ثوبًا نسائيًّا. وكثيرًا ما كان يحلو لكوبيو أن يداعبه فيتهمه بأنه يغازل نساء الشارع. ويحمر وجه كوجيت خجلًا ويقسم أنه لم يغازل في حياته امرأة أو فتاة.. وتضحك جرفيز عاليًا من سذاجة الشاب، ثم تبادر للدفاع عنه أمام زوجها قائلة أنه سيكون زوجًا مثاليًّا للفتاة التي ستسعد يومًا بالزواج منه. ولكن كوجيت يهز رأسه ويؤكد أنه لن يتزوج، ولن يفكر في الزواج. وهنا يغمز كوبيو بعينيه لزوجته، ويقول ضاحكًا:

– ألم أقل لك؟!

ولكن الصداقة بين الشابين كانت تزداد توثقًا. فكانا يخرجان معًا في

الصباح إلى عملهما، ويرفعان الكلفة بينهما في الحديث، ومما ضاعف من قوة هذه الصداقة أن كوجيت أنقذ حياة كوبيو في اليوم الثاني من شهر ديسمبر. وكان يومًا قررت فيه بعض الطوائف أن تعلن احتجاجها على سياسة الحكومة، فخرجت المظاهرات، واصطدم الشعب بالجنود ورجال الشرطة. واشترك كوبيو في إحدى هذه المظاهرات، وكاد أن يتعرض لطعنة سونكي من بندقية أحد الجنود لولا أن قفز كوجيت في تلك اللحظة ولكم الجندي فصرعه، ثم حمل كوبيو ووثب عبر سياج قريب، وانطلق الشابان هاربين، ناجيين.

وفي مساء ذلك اليوم دعا كوبيو جاريه، كوجيت وأمه لتناول العشاء معه، وفي نفس الليلة تبادل مع كوجيت قبلات الصداقة الأبدية.

وعلى هذا النحو مرت ثلاثة أعوام على حياة الأسرتين المتجاورتين مرت في سلام ومودة وعمل دائم.

ولم تقصر جرفيز لحظة في تربية ابنتها نانا أو ابنها اتيين. كانت ترعى الابنة الصغيرة بمعونة مدام كوجيت. وكانت تدفع لابنها اتيين نفقات المدرسة التي التحق بها، حين بلغ الثامنة من عمره. وكانت قد بلغت من البراعة في عملها ما جعلها قادرة على أن تكسب في اليوم أربعة فرنكات. وعلى هذا النحو كان في مقدورها أن تدخر في كل شهر نحو عشرين أو ثلاثين فرنكًا. وقد بلغ رصيدها، هي وزوجها، في البنك بعد ثلاثة أعوام نحو خمسمائة فرنك.

على أن هذا الميل إلى الادخار لم يكن يحرمهما من الاستمتاع بأطايب

الحياة، أو من الحصول على ما تهفو إليه النفس في الحدود المعقولة، فمثلًا كانت جرفيز تتمنى أن تشتري ساعة أنيقة على هيئة تمثال فينوس فوق قاعدة رخامية. وقد استطاعت بعد عام من إقامتها في المسكن الجديد أن تشتري هذه الساعة، وأن تضعها على خزانة الأدراج في غرفة نومها، وأن تشعر بالسعادة كلما نظرت إليها.

وكانت مع زوجها تخرج في صباح كل يوم أحد في صحبة كوجيت ووالدته حيث يقضون اليوم في نزهة خلوية بالريف. وكانوا في خلال هذه النزهات يتناولون السمك المشوي حينًا في قرية سانت كوين، أو الأرانب المحمرة في قرية نسنج.. ويشرب الرجلان بعض النبيذ في غير إسراف، ويعود الجميع في نهاية اليوم وهما أشد ما يكونوا في سعادة وهناء.

وفي هذه الفترة، لم تكف جرفيز عن التفكير في مشروع يؤمن حياة الأسرة بصفة دائمة.. كانت تخشى أن يأتي اليوم الذي لا تستطيع فيه العمل.. وكذلك كوبيو.. وكانت حالة العمال العجائز المتسولين تفزعها كلما خطر ببالها أنه قد يأتي عليها اليوم الذي تتسول فيه طعامها بسبب عجزها عن العمل..

وكان المشروع الذي تفكر فيه قد اتضح ذهنها، فقررت أن تفاتح فيه زوجها يوم الاحتفال بمرور العام الثالث على مولد ابنتهما نانا.

الفصل الخامس

في مساء اليوم المنتظر قالت جرفيز لكوبيو بعد عودته من العمل:

– لك عندي مفاجأة سارة ..

ونظر إليها في تساؤل، وهي تضع أدوات الطعام والشراب على المائدة. وبعد أن مرت فترة صمت، قالت:

– إن دكان الخردوات في شارع كوت لادور.. أعني في البيت الكبير معروض للإيجار. لقد عرفت هذه الحقيقة منذ ساعة فقط عندما ذهبت لشراء بكرة خيط.

وكان الدكان صغيرًا ونظيفًا، في نفس البيت الذي تمنت جرفيز أن تسكن فيه. وكانت للدكان غرفتان خلفيتان ملحقتان به.. أي كان الدكان بغرفتيه كل ما يرمز لآمال جرفيز لحياة هادئة مستقرة. ولكن الثمن المطلوب عاليًا.. لقد طالب صاحب العقار بمبلغ خمسمائة فرنك دفعة واحدة.

وقال لها كوبيو:

– إذن فقد ذهبت وسألت عن المبلغ المطلوب لاستئجار الدكان والغرفتين؟

فاضطرم وجهها وقالت:

– ذهبت على سبيل العلم بالشيء فقط. ومجرد الفرجة أو السؤال لا يربط أحدًا بشيء. ولا شك أن المبلغ المطلوب باهظ جدًّا.. وكذلك من

الحماقة أن يغامر الإنسان في الوقت الحاضر لينشئ عملًا مستقلًّا به.

ولكنها عادت إلى الحديث، بعد العشاء، عن الدكان المعروض للإيجار، وأخذت ترسم على ورقة أمامها مل التفاصيل الدقيقة التي تنوي أن تنفذها لتحويل الدكان إلى محل للغسيل والكي.. بل لقد أخذت تتحدث عن الأماكن التي ستضع فيها الأثاث والمفروشات في الغرفتين الخلفيتين، وكأنها تنوي الانتقال إليهما في اليوم التالي. ولما أدرك كوبيو مدى اهتمامها بالأمر، أخذ يشجعها ويؤكد لها أن مبلغ الخمسمائة فرنك ليس بالقدر الكبير لاستئجار دكان وغرفتين ملحقتين به طيلة العام. ثم اختتم حديثه قائلًا:

– إن المشكلة الوحيدة هي كيفية احتمال السكنى في بيت واحد مع أختي وزوجها لوريليو!

وهتفت هي في حدة:

– إنني لا أكره أحدًا.. ومهما بلغت كراهية أختك لي، فإني سأعرف كيف أحتملها وأحول كراهيتها إلى حب ومودة.

ولما حان موعد النوم، استغرق فيه كوبيو بمجرد أن وضع رأسه على الوسادة، بينما بقيت جرفيز مسهدة تفكر في كل صغيرة وكبيرة من المشروع.

وفي الصباح، وقبل انصرافها إلى عملها، تناولت دفتر التوفير من مكانه بقاعدة تمثال الساعة، وراحت تتصفح أوراقه وهي تقول لنفسها "في هذا الدفتر الصغير تتركز كل آمالي"..

ولما عرضت فكرة المشروع في ذلك الصباح على مدام كوجيت،

شجعتها بحماس، وقالت لها إن عوامل النجاح كلها ميسورة لمثل هذا المشروع، لأنها، أي جرفيز، أصبحت خبيرة في أعمال الغسيل والكي، ولأن زوجها شاب مجتهد مستقيم لا يضيع مكاسبه في شرب الخمر والجري وراء بنات الليل.

وذهبت جرفيز تستشير أخت زوجها – مدام لوريليو – حتى لا يقال فيما بعد أنها تصرفت بمفردها دون احترام لرأي أحد. وفوجئت مدام لوريليو بالمشروع وشحب وجهها من فرط الغيرة.. وأبت أن تصدق أذنيها؟ كيف يمكن هذا؟ كيف يمكن لهذه العرجاء أن تكون صاحبة محل للغسيل والكي.. ومن يدري ماذا ينتهي بها الأمر؟ لعلها تنجح وتفتتح محلات أخرى، وتغدو بعد سنوات قليلة صاحبة مركبة مطعمة بالجياد مثل بنات الأسر الكبيرة؟

ولكن المرأة تظاهرت بالسرور، وشجعت جرفيز على تنفيذ المشروع، ثم راحت مع زوجها، تثبطان همتها بطريقة غير مباشرة، فقالا إن الغرفتين الملحقتين بالدكان لا تصلحان للسكنى لفرط ما فيهما من رطوبة، وإن احتمال الإصابة بالروماتيزم بعد سكانهما مؤكد. ولكن إذا كانت جرفيز قد عقدت العزم نهائيًا فلا معنى لهذه الاعتراضات.

وفي ذلك المساء، اعترفت جرفيز لزوجها، وهي تضحك، أنها سوف تمرض إذا لم تظفر بهذه الدكان. ولكنها تريد منه أن يذهب ويفحصها ويحاول تخفيض المبلغ المطلوب قبل أن تتعاقد على استئجارها.

وهنا قال لها كوبيو:

– سوف أذهب غدًا إذا شئت، تعالى إلي في المنزل الذي أعمل به في

نحو الساعة السادسة مساء بشارع دي لانيشون، وسوف أذهب معك لمعاينة الدكان والغرفتين.

وفي مساء اليوم التالي كان كوبيو يوشك على الانتهاء من تركيب أنابيب المياه الساخنة والباردة على الجانب الخلفي من البيت الجاري بناؤه بشارع دي لانيشون. وكانا واقفًا بالقرب من السقف على سلاقة صغيرة يضع اللمسات الأخيرة في عمليات التركيب. وكانت الشمس قد مالت نحو الغروب في ذلك اليوم من شهر مايو، وسكبت أشعتها على المداخن بلون الذهب.

وفيما كان يقوم بعمله الدقيق بمعاونة مساعدة الغلام زيدور، إذا به يلمح صديقة زوجته، البوابة مدام بوش، فهتف بها:

– طاب مساؤك يا مدام بوش.. كيف حالك؟

ورفعت المرأة عينيها إلى كوبيو، وتسمرت في مكانها وهي تراه واقفًا بقدم واحدة على السقالة، والأخرى على حافة الجدار وقد مال بجسده في وضع يبدو للناظر من أسفل أنه شديد الخطر.. ولكن كوبيو كان قد اعتاد على هذه الأوضاع الخطرة.

وعاد يقول لمدام بوش في مرح:

– ألم ترى زوجتي يا مدام بوش؟

– لا.. لماذا تسأل؟

– إنها وعدت بالحضور إلي في هذا الوقت.. هل كل شيء على ما يرام يا مدام بوش؟

وكانت مدام بوش وزوجها قد تحولا للعمل في حراسة البيت الكبير الذي تقيم فيه مدام لوريليو وزوجها، أو كما كانت جرفيز تسميه بيت شارع كوت لادور.

وردت المرأة عليه قائلة:

– طاب مساؤك يا مسيو كوبيو.. إنني ذاهبة لشراء فخذة ضأن من شارع المولان روج؛ لأن اللحم في هذا الشارع أرخص منه في الشوارع الأخرى.

ولكنها ما كادت تستدير حتى رأت جرفيز مقبلة من الجانب الآخر من الطريق ومعها نانا. ورفعت البوابة رأسها لتخبر كوبيو بحضور زوجته، ولكن جرفيز لحقت بها وأمسكت بذراعها وهمست لها:

– لا.. دعيه.. أخشى أن تفاجئيه فيختل توازنه.. إنني لم أكن أعرف أنه يعمل هكذا معلقًا بين الأرض والسماء، يا إلهي.. إن أبسط انزلاقة قدم تهوي به إلى الشارع.

وأومأت مدام بوش برأسها، بينما استطردت جرفيز تقول:

– إنها الأقدار التي تجعل بعض الناس يحصلون على خبزهم اليومي بأشق الأعمال وأخطرها.

وتوقفت في جانب الطريق، وهي تخفي ابنتها بثوبها خشية أن تصيح

الطفلة مناديه أباها ،فيفاجأ وينزلق، ولكن كوبيو لم يلبث أن التفت، وهو في مكانه الخطر، ورأى زوجته وابنته، فابتسم وصاح بهما.

– آه. أهذه أنت يا جرفيز.. واقفة تختلسين النظر إلي؟! لا شك أنها طلبت منك مدام بوش ألا تنادي علي خوفًا من أن أسقط.. حسنًا، لسوف أهبط إليكما في خلال عشر دقائق.

وكانت امرأة عجوز شمطاء واقفة في نافذة البيت المقابل، تنظر إلى كوبيو بوجه مقطب، وبعينين ترتسم عليهما إمارات الترقب!

وبعد لحظات، قال كوبيو لمساعدة زيدور:

– لقد فرغت من تثبيت رأس هذه الأنبوبة. وسوف أهبط الآن لأن زوجتي كما ترى في انتظاري.

وفجأة صاحت نانا حين لمحت والدها لأول مرة:

– بابا.. بابا.. انظر.

والتفت كوبيو بسرعة نحو ابنته.. وكانت هذه الحركة المفاجئة كافية لأن ينزلق من فوق السقالة، وإذا هو يهوي على ارتفاع عشرة أمتار إلى الشارع.

وتراجعت المرأة العجوز الشمطاء عن نافذتها، وأغلقتها، وكأنما اطمأنت إلى أن ما كانت ترقبه قد حدث.

وسقط كوبيو على أرضية الشارع بين صيحات زوجته الفزعة، وصرخات بعض النساء العابرات، وهتاف الرجال وبكاء الطفلة نانا التي أخذتها مدام بوش بين ذراعيها وهي ترتعد.

وأسرع بعض المارة إلى كوبيو وحملوه إلى أقرب صيدلية. وهناك ظل راقدًا بلا حراك نحو ساعة. ولكنه كان يتنفس ببطء. بينما ذهب البعض لإحضار ممرضة من المستشفى القريب، أما جرفيز فقد ركعت بجواره تبكي وتتحسس برفق كل جزء في جسده، ولكنها تراجعت قليلًا حين طلب منها الصيدلي أن ترفع يديها عن الجريح، ولما جاءت المحفة، وتحدث البعض عن حمله إلى المستشفى، صاحت قائلة إنها لن تسمح لأحد بأن يأخذ زوجها منها، أنها على استعداد لأن تبيع شعرها نظير علاجه في البيت، تحت إشرافها وفي ظل رعايتها.

وعلى هذا النحو، نقل كوبيو إلى البيت حيث ظل أسبوعًا وهو بين الموت والحياة.. وكان الجيران يتوقعون في كل لحظة أن يسمعوا نبأ وفاته، وكان الطبيب المعالج يخرج بعد فحصه كل يوم بوجه ترتسم عليه إمارات اليأس. ولكن استقامة الشاب وحيوته وقوة بنيته كان لها الأثر الكبير في التغلب على الإصابات الداخلية، ولم يبق أمامه إلا أن يتغلب على الكسر الذي حدث في ساقه.

وكانت جرفيز تقوم على خدمته ليلًا ونهارًا.. ولم يكن يساعدها في هذه الرعاية إلا أمه، مدام كوبيو العجوز، التي كانت تأتي من بيت ابنتها مدام ليرات لتتولى السهر بضع ساعات ليلًا. وكانت إصابة كوبيو قد أدت إلى تصفية كل الخلافات بين أفراد الأسرة بسبب اضطرارهم إلى الاجتماع في مسكنه للسؤال عنه والاطمئنان عليه. وهكذا تم الصلح بين الاختين مدام ليرات ومدام لوريليو، وكذلك عاد الوفاق بين الأم العجوز مدام كوبيو وبين ابنتها مدام لوريليو التي سرها كل السرور أن ترى جرفيز تبعثر مدخراتها في

علاج زوجها، وكانت جرفيز، في الواقع، لا تدخر جهدًا أو مالًا في سبيل علاج زوجها وعودته إلى ما كان عليه من صحة وقوة. ورغم هذا فإن مدام لوريليو وزوجها لم يكفا عن السخرية منها. فكانت المرأة تقول بلهجة لا تخلو من شماتة:

– لماذا أصررت على علاج زوجك في البيت؟ والآن.. ماذا ستفعلين في تنفيذ مشروعاتك.. إن الدكان لا يزال معروضًا للإيجار حتى الآن.

وكان الزوج، لوريليو، يقول متهكمًا:

– نعم.. وإن صاحب البيت لا يزال في انتظارك لاستئجارها.

وشعرت جرفيز بالحزن في أول الأمر لانهيار آمالها. ولكنها أخذت تعتاد على هذا الموقف، حتى أصبحت تقول ضاحكة كلما تناولت دفتر التوفير، وذهبت لتصرف مبلغًا جديدًا من المال:

– إنني ذاهبة لاستئجار الدكان.

وكانت تعزي نفسها بأن المال المدخر لم يذهب سدى، وإنما ذهب في علاج زوجها الحبيب الذي ما كانت لتتردد في التضحية بروحها من أجله.

ولم يدخر آل كوجيت – من جانبهما – جهدا في التخفيف عن جرفيز أثناء مرض زوجها. فكانت مدام كوجيت العجوز تلبي نداءها في أية لحظة من الليل أو النهار، وكان الشاب كوجيت لا يتردد في أداء أية خدمة تطلبها منه جرفيز، وفي المساء كان يجلس في غرفة المريض، وينظر في دهشة وإعجاب إلى تفاني جرفيز في خدمة زوجها. وقد قال له ذات يوم وهو في دور النقاهة:

– أتعرف أيها الصديق أن الفضل في شفائك يرجع إلى الله، وإلى زوجتك الملاك الحارس!

ولهذا السبب كان يقول لجرفيز كلما تحدثت معه بشأن زواجه:

– ليست النساء كلهن مثلك يا مدام جرفيز. ولو جميعها مثلك لتزوجت أية واحدة منهن، وأنا مغمض العينين.

ولما تحسنت صحة كوبيو وأصبح قادرًا على الخروج، أصرت جرفيز على أن يبقى بلا عمل بضعة أسابيع حتى يسترد كل قواه. واكتفت هي بالعودة إلى عملها، تاركة زوجها مستجمًّا في البيت، أو متمشيًا في الطريق أو زائرًا لأخته مدام لوريليو أو لبعض أصدقائه، إلا أنها بدأت تنظر في شيء من الحسرة والألم إلى الدكان المعروض للإيجار كلما مرت به.. وكانت في أحيان كثيرة تقف أمامه، وتعض شفتيها وترى فيه آمالها المنهارة.

ورغم ضياع مدخراتها، فقد أخذ الدكان يحتل كل تفكيرها.فكانت في سكون الليل تفكر فيه، وتحسب كل فرنك تحتاج إليه لافتتاحه، مائتين وخمسين فرنكًا إيجارًا لمدة عام، ومائة وخمسين فرنكًا لإعداده وشراء لوازمه، ومائة فرنك لتكون في يدها حتى يكثر العمل، ويزداد عدد عملائها. وهذا يعني أنها في حاجة إلى خمسمائة فرنك على الأقل. وإذا كانت ترفض أن تتحدث مع أحد في هذا الشأن، فإنما خوفًا من أن تثير شماتة أو عطف أحد عليها. وفي بعض الأحيان كانت تعض لسانها حين تند عنها كلمة تنم عن أملها المنهار. وكانت ترى أنها ستحتاج إلى أربع سنوات أخرى لتدخر مثل هذا المبلغ. ولكن هل يتسع العمر لسنوات أربع بعد أربع! وإذا اتسع العمر،

فهل ستجد مثل هذا الدكان الذي يتوافر فيه كل عوامل النجاح؟

وأسوأ من هذا أن كوبيو اعتاد على الراحة والكسل، فأصبح يؤجل العودة إلى العمل أسبوعًا بعد أسبوع، ولم تشأ جرفيز أن تثقل عليه وتبين له أن الجزء القليل الباقي من مدخراتهما لن يكفي لنفقات الأسرة أكثر من شهر آخر.

على أن هذا كله لم يكن يقارن بمخاوفها عندما أخذت تراه وهو يعود مساءً بين الحين والآخر منتشيًا، يغني، ويعترف قائلًا إنه شرب بضع كئوس من البراندي مع صديقه مبيوتس!

وفي ذات مساء، وبينما كانت جالسة في مسكنها بمفردها، أقبل الشاب كوجيت كعادته، وجلس يدخن متبغه في هدوء وهو ينظر إليها نظرة العابد إلى معبوده. وأدركت جرفيز من إمارات وجهه أنه يريد أن يقول لها شيئًا على جانب كبير من الأهمية، ولما طال الصمت بينهما، جمع شجاعته، وغض بريقه، ثم قال في صوت مضطرب بالانفعال:

– مدام جرفيز.. هل تسمحين لي بإقراضك بعض النقود؟!

والتفتت إليه بوجه شديد الاحمرار.. لا شك أنه رآها أكثر من مرة وهي واقفة أمام الدكان! ولكنها هزت رأسها.. لا.. إنها لا تستطيع أن تستغل عبادة هذا الشاب لها وتأخذ ماله.. إن هذا لا يليق.. إذا كانت الأقدار قد قررت أن تحرمها من تحقيق أغلى أمل في حياتها، فلا يجوز لها أن تحاربها بمال هذا الشاب الطيب.. ماله الذي جمعه درهمًا فوق درهم بعرق جبينه ونور عيني والدته.

ثم كيف تقبله وهي لا تدري متى ترده أو كيف ترده. أليس الاحتمال قائمًا بأن المشروع – كأي مشروع آخر – قد ينتهي بالفشل؟

لا.. لا.. إنها لا تستطيع أن تقبل هذه المكرمة! ولكن الشاب ظل يلح عليها حتى قالت له في اضطراب:

– ولكن.. ماذا عن زواجك يا مسيو كوجيت؟ إنك تدخر هذا المال لتتزوج طبعًا، فكيف أحرمك منه؟

واحمر وجه الشاب وهو يقول:

– إنني لن أتزوج، أو على الأقل، لا أفكر في الزواج الآن، وحتى لو كنت أفكر فيه، فإني أفضل ألف مرة أن أقرضك حاجتك من المال.

وهنا أطرق الاثنان برأسيهما إلى الأرض..وطلب كوجيت منها أن تذهب وتخبر أمه بأنها قبلت هذا القرض.. قرض مبلغ خمسمائة فرنك.. وكان الواضح على الأم العجوزة أنها غير راضية عن العملية، ولكنها لم تكن تحب أن ترد لابنها طلبًا أو تفسد عليه متعته. وكانت في قرارة نفسها غاضبة على كوبيو؛ لأنه رفض أن يسمح لابنها أن يعلمه القراءة والكتابة أثناء الشهور الطويلة التي أمضاها في فترة النقاهة. ذلك أن كوجيت حاول كثيرًا أن يغريه بتعلم القراءة والكتابة قائلًا له إن الاطلاع على تجارب الغير في الكتب سوف يحميه كثيرًا من مزالق الحياة، ولكن كوبيو طلب منه أن يتركه وشأنه.

وتم الاتفاق بين جرفيز وآل كوجيت على أن تسدد القرض بأقساط شهرية، في مدى عامين، أي بمعدل عشرين فرنكًا في الشهر تقريبًا..

وأخذت جرفيز تنتظر زوجها وهي لا تكاد تمسك نفسها من فرط السرور والابتهاج. وكانت تروح وتجيء في المسكن وهي تتخيل الدكان بعد أن يتم إعداده.. وتتخيل نفسها رئيسة لبضع عاملات يشتغلن تحت إشرافها.. والغرفتان الخلفيتان.. أحدهما لها ولزوجها، والأخرى لنانا وأتيين..

ولما عاد كوبيو في تلك الليلة منتشيًا ببضع كئوس من البراندي، أخبرته جرفيز بما تم الاتفاق عليه، وعندئذ ضحك عاليًا، وضرب فخذه بيده وقال:

– عظيم.. عظيم. إن الحداد الشاب يعرب عن عبادته لك عمليًّا، حسنًا.. حسنًا.. إننا سوف ندفع له ماله كله يومًا ما. ولو كنا جماعة من الأوغاد المستغلين، لخدعناه وغررناه به وأخذنا منه نقوده بلا مقابل.. أليس كذلك يا عزيزتي..؟

فابتسمت جرفيز في حزن وقالت:

– لا يعاب عزيزي.. ليس الأمر كما تقول.. فإن الأوغاد المستغلين ما كانوا ليردوا جميلًا كهذا بالنصب والاحتيال!

وفي اليوم التالي، استأجر كوبيو الدكان.. وكانت جرفيز من فرحتها تجري من مسكنها إلى الدكان، وبالعكس، دون أن تعرج..

الفصل السادس

أثار محل جرفيز للغسيل والكي، ضجة كبيرة بين سكان البيت الكبير. وكانت جرفيز تشعر بالقلق حين وجدت أن نفقات تجهيز المحل قد ابتعلت المائة فرنك التي كانت تريد الاحتفاظ بها لمدة أسبوعين حتى يكثر العملاء، ويدر المحل أرباحه الأولى، ولكن كان يوم الافتتاح الأول للمحل، من الأيام التي تركت في نفس جرفيز أثرها العميق.. لقد نجح المحل في يومه الأول وبلغ صافي إيراده ستة فرنكات. ومن ثم أخذت جرفيز، قبل أن تذهب إلى فراشها في تلك الليلة تقوم بعمليات حسابية على قطعة ورق. ولم تلبث أن أيقظت كوبيو من منامه وقد توهج وجهها بالفرحة، وقالت له إن في مقدورهما أن يربحا مئات وآلاف الفرنكات في العام إذا عرفا كيف يلتزمان الحكمة والاتزان وحسن التصرف.

ولكن مدام لوريليو كانت تقول للجيران بوجه شاحب من فرط الغيرة والحسد:

– حسنًا.. حسنًا.. الشاطر من يضحك على الآخر.. لسوف نرى ماذا يمكن لهذه العرجاء أن تفعل؟ أكبر الظن أنها ستؤدي بأخي المسكين إلى الهاوية.

وكانت مدام لوريليو قد أصبحت، بعد نجاح جرفيز في استئجار المحل، من ألد أعدائها. وقد بلغ من فرط كراهيتها، هي وزوجها، أنهما كانا يسيران في الاتجاه الآخر من الشارع عند خروجها من البيت حتى لا تقع أنظارهما

على جرفيز في محلها الأنيق النظيف. ولما حدث في اليوم التالي للافتتاح أن ألقت إحدى العاملات بقايا محلول النشا في الطريق أثناء خروج مدام لوريليو، صاحت هذه أمام الجيران، وأثارت ضجة كبيرة باتهامها زوجة أخيها بتدبير الوسائل لإهانتها عن طريق عاملاتها.

ولم تكن، من فرط الحسد والكراهية، تتورع عن تعريض شرف أخيها للغمز بين الجيران، فكانت تقول :

– نعم.. شيء جميل.. إننا جميعًا نعرف من أين جاءت بهذا المال الذي أنشأت به المحل. لقد جاءت به من الحداد الشاب كوجيت؟ فهل تراه قد أعطاها هذا المال الكثير بلا مقابل؟!

ولم تلبث أن أخذت تتهم جرفيز، علانية، بتسليم نفسها للحداد الشاب كلما سنحت لها الفرصة.

ولكن مدام كوبيو – العجوز – كانت حريصة على استرضاء ابنتها مدام لوريليو، وابنها كوبيو وزوجته، فكانت تحضر لتناول الطعام بين الحين والآخر معها وتنصت إلى شكاياتهما، ولا تغضب في الوقت نفسه ابنتها مدام لوريليو أو ابنتها الأخرى مدام ليرات التي كانت بدورها قد اتخذت موقف العداء من جرفيز وزوجها.

على أن جرفيز، خلال هذا كله، كانت تخرج إلى الباب محلها وتومئ برأسها لهذه الجارة أو تلك، وتتسلى بالنظر إلى موكب الحياة وهو يمر أمام محلها، وتشعر بالسعادة الغامرة حتى تروح عن نفسها من عناء العمل بهذه الوقفة القصيرة بباب المحل.

ورغم كل محاولات مدام لوريليو لتأليب الجيران على جرفيز، فقد وجد هؤلاء أن جرفيز سيدة طيبة بشوش، سخية اليد، ومنكبة على عملها، تبدو دائمًا نظيفة باسمة، لا تحاول إيذاء أحد أو نهش عرض أحد، وأكثر من هذا كان الجيران يتفاءلون بها.. فقد جعلهم نجاحها الساحق يدركون أنها إنسانة سعيدة الحظ، يتحول التراب في يديها إلى ذهب، ومن ثم كان سكان شارع لاكوت دور كله، وبعض الشوارع المجاورة يتسابقون في إرسال ملابسهم إلى محلها.. وكانت هي تعمل بجوار عاملاتها الثلاث إلى ساعة متأخرة من الليل حتى تفرغ من كل أعمالها في المواعيد المحددة.

أما من ناحية زوجها، فكانت جرفيز تعامله أطيب معاملة. فلم يحدث قط أن وجهت إليه كلمة قاسية أو تحدثت من ورائه شاكية. وأخيرًا عاد كوبيو إلى عمله. ولما كان هذا العمل في الجانب الآخر من المدينة، فقد درجت جرفيز على إعطائه فرنكين في الصباح لركوبه وغدائه وكأس نبيذه وسجائره. ولكن كوبيو كان ينفق المبلغ في الشراب مع أصدقائه، ثم يعود إلى البيت ليتناول غداءه، ويطلب ثمن سجائره وركوبه. وقد حدث ذات يوم أن شرب مع أصدقائه بأكثر من فرنكين، فأرسل خادم الحانة إلى زوجته لتدفع له المبلغ الزائد. وضحكت جرفيز وهي تدفع هذا المبلغ قائلة لنفسها إن من حق زوجها أن ينعم بالحياة بين الحين والآخر.

وأقبل أول موسم للصيف بعد افتتاح المحل.. واشتدت الحرارة بداخله إلى حد جعل العرق يتفصد من جبين جرفيز وذراعيها.. وكذلك كان الحال مع عاملاتها الثلاث، مدام بوتوا، والآنسة كليمانس، والصبية البلهاء الحولاء العينين أوجستين.

وفي يوم اشتدت حرارته وقفت العاملة كليمانس بجسمها الكبير وقامتها الطويلة وبشرتها الناصعة وشعرها الذهبي، وقفت في المحل تعمل بقميصها الداخلي مما جعل أصحاب المتاجر في الجانب الآخر من الشارع يختلسون النظرات إليها، وكذلك المارة. وهنا قالت لها زميلتها مدام بوتوا البالغة من العمر خمسًا وأربعين سنة، والتي كانت واقفة تعمل بكامل ملابسها حتى القبعة:

– هذا لا يليق يا كليمانس. ارتدي ثوبك الخارجي. إن ثلاثة رجال قد وقفوا في الجانب الآخر يحملقون فيك..

ولكن كليمانس، المعجبة بجمالها، وضعت يدها على نهديها البارزتين، وقالت ضاحكة:

– دعيهم يستمتعون بالنظر إلى جمال جسدي! إن هذه النظرات لن تضر أحدًا.

ولكن جرفيز قالت لها معاتبة:

– لا.. يا كليمانس.. قد يظن البعض أننا ندير المحل لأغراض غير شريفة، يحسن أن ترتدي فستانك.

ولم يسع كليمانس إلا أن تنزل على رغبة صاحبة المحل، ولكنها لم تلبث أن قالت بعد فترة حين شاعت في جو المحل رائحة الملابس القذرة التي كانت جرفيز تصنفها وتضع كل كومة منها في مكان خاص.

– يا لهذه الرائحة العفنة المتصاعدة من هذه الملابس!

فردت عليها جرفيز قائلة:

- من المفروض أن تكون ملابس متسخة، وإلا لما أرسلها أصحابها للغسيل والكي!

وفيما هي منهمكة في حصر قطع الملابس وتصنيعها، أقبل كوبيو وقال في ضيق وهو يترنح:

- يا للحرارة القاتلة.. إنها تكاد تذيب الجسد..

وكانت تلك أول مرة يقبل فيها كوبيو سكرانا إلى حد عدم القدرة على التوازن. وقد قال معتذرًا لجرفيز:

- إن صديقنا بيادي سيري أصر على أن نشرب نخب عودته إلى بلدته.. ويبدو أننا أسرفنا بعض الشيء.. ثم هذه الحرارة القاتلة، لقد ضاعفت من مفعول الخمر في دمائنا.

ولم يسع جرفيز إلا أن تضحك من هذا الاعتذار الواهي.. وضحكت كليمانس أيضًا. وازداد كوبيو انتشاء وهو يسمع ضحكاتهما، فراح يلقى بعض العبارات الفكاهية، الخادشة للحياء أحيانًا.. وتزداد كليمانس ضحكًا وتقول:

- ما ألطف ما يقول المسيو كوبيو.. إن الإنسان لا يسأم الإنصات إليه.

وقالت جرفيز وقد عادت إلى عملها:

– يحسن أن نمضي وتنام يا كوبيو.. إن هذا خير ما يمكن أن تفعله في هذا الجو الحار.

ولكن الشاب ظل واقفًا يتأرجح كبندول الساعة، وأخيرًا تقدم نحو جرفيز وهو يقول بصوت مثقل بالخمر:

– إنك زوجة رائعة.. يجب أن أقبلك أولًا.

وتعثرت قدمه في بعض الملابس المتناثرة على الأرض وكاد يقع. وقالت له جرفيز دون أن تغضب أو تستاء:

– ليس هذا وقت القبل.. دعني أفرغ من عملي أولًا.

ولكنه أصر على أن يقبلها، ليعرب لها عن مدى حبه.. وحاولت جرفيز أن تدفعه عنها، وراح يتعثر في الملابس حتى كاد يقع. هتفت مدام بوتوا والأنسة كليمانس يطالبانها بالسماح له أن يقبلها.. وقالت كليمانس ضاحكة:

– ليتني أتزوج يومًا شابًا يصر على تقبيلي هكذا.

وقالت مدام بوتوا:

– إنك سعيدة الحظ يا مدام جرفيز.. لو كان زوجي يتصرف على هذا النحو حين يسكر، لغفرت له كل مساوئه.

ووافقت جرفيز أخيرًا على أن تقدم شفتيها لزوجها، ولكنه لم يكتف بتقبيلها، وإنما أمسك نهديها بقوة وتمتم قائلًا:

– إذا لم تتبعيني بعد خمس دقائق، فسوف آتي وأحملك بالقوة.

فقالت وهي لا تملك نفسها من الضحك:

– أرجوك.. دعني.. دعني. إنك تتصرف بحماقة.

ولكنه كان قد أمسكها بعنف، وراح ينهال عليها بالقبلات النارية، وكانت القبلة الأخيرة الطويلة، بين الملابس القذرة، بمثابة الخطوة الأولى في طريق الانحدار الطويل.

وترك كوبيو زوجته، واستدار إلى كليمانس، وحاول أن يمسك بها ليقبلها، ولكن الفتاة أخذت تراوغه في تدلل وضحك، وقالت جرفيز دون أن تشعر بالغيرة أو الغضب:

– دع الفتاة وشأنها يا كوبير.. ألا ترى أننا جد مشغولات؟

وقال كوبيو بصوته المخمور:

– إن لكليمانس جسدًا خلق لتتحسه أصابع الرجال.. ومن الظلم أن يستمتع به رجل واحد!

وضحكت كليمانس وقالت ببساطة:

– وهذا هو رأيي أيضًا يا مسيو كوبيو.

وشجعت هذه الكلمات كوبيو على التمادي في محاولاته للإمساك بها. وخشيت الفتاة أن ينتهي الموقف إلى غضب جرفيز فصاحت قائلة وهي تصطنع التوسل:

– مدام جرفيز.. أرجوك.. إبعديه عني.

ثم أردفت قائلة حتى تبرئ نفسها تمامًا من محاولة إغراء كوبيو:

– إذا لم يكف عن محاولاته هذه فسوف أغادر المحل.

فقالت جرفيز بلهجة الأم التي تعنف طفلًا مشاغبًا:

– يجب أن تتصرف بأدب يا كوبيو.. هلم إلى فراشك.

وقالت مدام بوتوا:

– نعم يا مسيو كوبيو.. إن خير ما تفعله الآن أن تنام.

فقال كوبيو متلعثمًا:

– حسنًا.. حسنًا.. سوف أنصرف.. ولكن.. لماذا لا أنعم بلحظات سعيدة.. إن المرأة تحب الغزل والمداعبة، وأنا أعرف النساء عن خبرة. وما دام الأمر لا يتجاوز القبلات. فأي ضرر في هذا؟

ثم استدار إلى كليمانس وأردف قائلًا:

– مهلًا يا بطتي.. لسوف أظفر بك يومًا بعيدًا عن أعين الغير.

ولكن جرفيز كانت قد أمسكت بذراعه ودفعت به إلى غرفة النوم، إلا أنه صاح قائلًا لكليمانس قبل أن يختفي:

– لا تنسي يا بطتي إنني في انتظارك هنا..

وعادت جرفيز إلى عملها، ثم قالت بعد فترة صمت كأنما تفسر موقفها:

– إن الإنسان لا يستطيع أن يحطم أعصابه بسبب تصرفات زوج سكير.. إنه يتحدث بلسان الخمر. وبعد أن يفيق سوف ينسى كل شيء..

وحسبي أني أعرف مبلغ حبه لي. وهذا وحده يغفر له كل شيء.

* * *

واستيقظ كوبيو في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي مصدع الرأس، ممرور الفم، مكتئب السمات، وكان قد أدرك أن وقت الذهاب إلى العمل قد فات، وأن عليه أن يقضي بقية يومه متسكعًا.. ولما ضاقت زوجته بمشاغباته للعاملات في المحل، أعطته بضعة فرنكات، فأخذها وارتدى أحسن ملابسه، وانصرف بعد تناول العشاء. ولم يلبث أن التقى بأصدقائه في حانة بيير كولمبس، ولما عاد في ساعة متأخرة من الليل، كان مخمورًا أيضًا، وقد قال لزوجته متهكمًا:

– ألم يحضر حبيبك اليوم؟ إننا لم نعد نراه كثيرًا في هذه الأيام؟

وكان يقصد بحديثه هذا الشاب كوجيت، الذي كان يحضر إلى المحل بين الحين والآخر، ويجلس في ركن منه يدخن غليونه في صمت، ولا يحول نظراته عن جرفيز وهي تقوم بعملها. وكانت هي قد ازدادت امتلاء، وأصبح جسدها ملفوفًا مشحونًا بالجاذبية الجنسية، كما ازدادت بشرتها نقاء وصفاء.وكان شعرها الذهبي المتهدل على كتفيها يبين، وكأنه أسلاك رقيقة من الذهب المتساقطة على بشرة في نعومة الحرير.

ولما أخذ كوبيو في الأسابيع الأخيرة يضيق بالصبي أتيين، ابن جرفيز من لانتيير، اقترح كوجيت أن يلحقه بالعمل معه في مصنع الحدادة، وهكذا أصبح الصبي حلقة جديدة في سلسلة الاتصال بين كوجيت وجرفيز. وكان الجيران والأصدقاء يتحدثون عن هذه العلاقة بعبارات فكاهية وهم مؤمنون

تمامًا أنها علاقة حب بريء بين شاب خجول وامرأة جذابة.

وكانت جرفيز – من جانبها – قد بدأت تشعر بالميل الغريزي إلى الشاب الهادئ المتزن. وكما تراكمت عليها المتاعب لهذا السبب أو ذاك، فكرت في كوجيت، وشعرت بالراحة والأمن. وإذا حدث وكانا في المحل بمفردها. أخذا يتبادلان النظرات الطويلة المصحوبة بالابتسامات التي تعرب عن عمق حبهما البريء المتبادل.

وفي ذات يوم سمعت جرفيز بعض الجيران يتحدثون عن الحالة التي وصلت إليها مدام كوبيو العجوز – أم زوجها – وعن اضطرارها في بعض الأيام التماس الطعام من الغرباء، واستاءت جرفيز مما سمعت، وقررت أن تضع لهذه الأقوال حدًّا.. ومن ثم صعدت إلى مسكن لوريليو وزوجته، وقالت لها بلا مقدمات:

– لعلك ستدهشين من زيارتي لك،ولكنني لم آت لأراك أو أرى زوجك العزيز، وإنما جئت للحديث في شأن مدام كوبيو، أريد أن أعرف هل سنتركها دائمًا تسأل الناس طعامًا كلما شعرت بالجوع ؟

فقالت مدام لوريليو وهي منهمكة في عملها:

– يا للوقاحة.

وصاح لوريليو بوجه مربد:

– ماذا تقول هذه المرأة ؟

ولما أخبرته زوجته بالأمر، قال:

– آه.. إنها تريد مزيدًا من المشكلات. وإذا كانت مدام كوبيو تشكو للناس الجوع، فماذا نفعل؟ إنها تأكل عندنا يومًا، وعند مدام ليرات يومًا.. وابنها كوبيو يعطيها بضعة فرنكات بين الحين والآخر.. فماذا تريد أكثر من هذا؟!

وهنا قالت جرفيز:

– إن لدي اقتراحًا جئت لأعرضه عليكما.. ماذا لو أن كل واحد من أبنائها الثلاثة خصص لها خمسة فرنكات كل شهر.. إنها تستطيع أن تعيش بخمسة عشر فرنكًا كل شهر، وأن تنام في أي مكان.. عندي أو عندكما أو عند مدام ليرات..

وصاح لوريليو قائلًا في فزع:

– خمسة فرنكات كل شهر، ماذا تظنين يا مدام جرفيز؟ إننا فقراء كما ترين. ومن يريد أن يأكل يجب أن يعمل.. ومدام كوبيو ليست أكبر سنًّا من أن تبحث عن عمل.. إن مدام كوجيت، وهي أكبر سنًّا منها. لا تزال تعمل من أجل خبزها اليومي.

وحاولت جرفيز أن تقنعهما بالإسهام في إعالة العجوز مدام كوبيو، فلما أصرا على موقفهما، انفجرت قائلة:

– ليكن ما تريدان.. لسوف أعول أمك يا مدام لوريليو.. لقد التقطت أمس من الشارع قطة ضالة، ولا بأس من أن ألتقط اليوم أمك العجوز لأحفظ عليها رمقها. إنني لن أدعها في حاجة إلى شيء.. فسوف أقدم لها قهوتها الصباحية، وكأسها المسائية.. وكل شيء يا إلهي حمدًا الله على أن لها زوجة ابن مثلي.

فقالت مدام لوريليو وهي لا تكف عن العمل:

– إن هذا ما تريدينه وما تسعين إليه.. تريدين أن تحيلي أمنا لخادمة عندك، وأن تظفري بالمال اللازم لإعالتها حتى تنفقيه على نفسك. ولكن هذا لن يكون.. إذا كنت تريدين ضمها إليك، فافعلي، ولكن تأكدي إنني لن أدفع درهمًا واحدًا لها أو لك.

وصاحت جرفيز وهي تصفق الباب وراءها منصرفة:

– يا لك من نمرة متوحشة!

وفي اليوم التالي بدأت مدام كوبيو العجوز إقامتها في مسكن جرفيز التي أعدت لها سريرًا مع نانا في الغرفة الثانية. أما أتيين فقد أعد له مقعدا مستطيلا – أريكة – لينام عليها في ركن بنفس الغرفة. وأخذت السيدة العجوز تعرب عن شعورها بالجميل عن طريق الاهتمام بنظافة المسكن.. فكانت تكنسه وتمسحه وترتبه حتى تتفرغ جرفيز لعملها والمحل. وابتهجت الابنة الأخرى مدام ليرات، بموقف جرفيز من الأم، فانضمت لها، وحسنت علاقتها بها، وأخذت تقضي أمسياتها في المحل تتبادل الأحاديث والفكاهات مع كليمانتس. وكان هذا كله سببًا لإثارة المزيد من حنق مدام لوريليو زوزجها على أفراد الأسرة ومن حقدها على جرفيز.

وعلى هذا النحو مرت ثلاثة أعوام أخرى..ورغم المشكلات والمنازعات بين جرفيز وآل لوريليو، إلا أن الجيران كانوا يزدادون حبًّا لجرفيز واحترامًا لها وتقديرًا لكفاحها وحرصًا على إرضائها. وكانت هي حين تفرغ من عملها، تقف بباب المحل، تتبادل الأحاديث والتحيات مع جيرانها من أصحاب

المتاجر، ومع عملائها المارين بها.. وكان يحلو لها أن تزور بعض أصحاب المتاجر والمحلات القريبة منها، ولا سيما صاحب متجر الساعات المواجه لها.. وكانت تضحك دائمًا كلما نظرت إلى محله الصغير وقد امتلأ بعدد كبير من الساعات التي لا تكف عن التكتكة ودق الساعات في غير أوقاتها المحددة!

الفصل السابع

كانت جرفيز قد اعتادت على الذهاب إلى مدام كوجيت يوم السبت مساء لتحمل إليها الملابس النظيفة، وتأخذ الأخرى التي في حاجة إلى غسيل وكي. وكانت في كل مرة تنصرف وهي تشعر بالخجل والحرج، لأنها كانت قد توقفت بعد الشهور الأولى عن تسديد أقساط الدين، والأسوأ من هذا أنها كانت تلجأ إلى الشاب كوجيت لتقترض منه حاجتها من المال كلما ارتبكت أحوالها المالية بسبب تصرفات كوبيو، واعتياده على إنفاق المال بلا حساب مع زملائه وأصدقائه في مختلف الحانات. ولهذا السبب عاد الدين إلى ما كان عليه.

وكانت جرفيز تحاول أن تخصم في كل شهر ثمن غسيل وكي ملابس مدام كوجيت وابنها من أصل الدين.. وكان المبلغ لا يتجاوز عادة سبعة فرنكات شهريًّا. ولكنها لا تنسى آخر مرة عندما ذهبت وسلمت ملابس الأسبوع، وتسلمت الملابس الأخرى، ثم وقفت مترددة مطرقة الرأس، لتقول في النهاية:

– مدام كوجيت.. إنني آسفة.. إنني في حاجة هذا الشهر إلى أجر الغسيل والكي.

وكان المبلغ في ذلك الشهر عشرة فرنكات ونصف فرنك. وصمتت مدام كوجيت برهة كأنما تفكر في الأمر ثم قالت في النهاية:

– ليكن ما تريدين يا ابنتي. إنني لا أستطيع أن أمنع عنك ما أنت في حاجة إليه، ولكنني أحب أن أقول لك إن هذه ليست الطريقة الصحيحة

لتسديد الدين. أقول هذا لصالحك. ويحسن بك أن تكوني أكثر حرصًا في تدبير شئونك المالية. واذكر لك بهذه المناسبة أن أجور العمال انخفضت مرة أخرى، وأصبح أجر كوجيت تسعة فرنكات بعد أن كانت عشر فرنكًا.

وأطرقت جرفيز برأسها في خجل، وأرادت أن تعتذر قائلة إنها في حاجة إلى هذه الفرنكات العشرة لتدفعها لصاحبة متجر الفحم، ولكنها رأت أن هذا الاعتذار لن يجدي. وأخيرًا تناولت الفرنكات العشرة والنصف فرنك وانصرفت وهي تكاد ترقص طربًا، لأنها في السنوات الأخيرة، لم يكن يهمها إلا أن تحصل على أي مبلغ لتسديد الديون العاجلة، أما الديون الأخرى التي يمكن أن تنتظر.. فلتنتظر.

وفي ذلك اليوم نفسه التقت جرفيز على غير موعد، وهي هابطة على الدرجات، بامرأة طويلة كانت تحمل في يدها سمكة كبيرة ملفوفة بقطعة ورق. ولم تعرفها إلا بعد النظرة الثانية، فإذا هي فرجيني، نفس الفتاة التي تضاربت معها في المغسل منذ أعوام سبعة، وأغمضت جرفيز عينها وهي تتوقع أن تشعر بضرب فرجيني لها بالسمكة، ولما طال انتظارها، فتحت عينيها، وراحت تتبادل النظرات برهة في صمت مع الفتاة التي ابتسمت في النهاية، وقالت برفق:

– طاب مساؤك!

– طاب مساؤك!

وتوقفتا على منبسط السلم تتبادلان الحديث كأنهما صديقتان قديمتان، وكانت فرجيني قد بلغت من العمر تسعة وعشرين عامًا، وكانت جرفيز

تقاربها سنًّا.. وأخذت الأولى تحدثها عن حياتها خلال تلك الأعوام السبعة، فقالت إنها تزوجت نجارًا تطوع في الجيش، ثم قرر أن يشتغل شرطيًّا بعد أن سرح من الجيش، وأنه في البيت الآن ينتظر أمر التعيين، وأنها خرجت في تلك الساعة لتشتري له هذه السمكة الكبيرة.

– إنه يحب السمك إلى حد الجنون.. وعلينا أن نرضي هؤلاء الأزواج الحمقى الكسالى.. تفضلي بزيارتنا.. إننا نقيم في المسكن المواجه لمسكن مدام كوجيت..

وبعد أن أخبرتها جرفيز عن زواجها، قالت لها إنها كانت تقيم مع زوجها في نفس هذا المسكن، وأنها أنجبت فيه طفلتها نانا. وعندئذ ألحت فرجيني عليها لتزورها وتتعرف على زوجها.

ورغم أن جرفيز كانت على حذر في هذه العلاقة العابرة، المجددة، ورغم خوفها من أن تكون فرجيني تدبر لها مكيدة تنتقم بها مما لقيت على يديها من مهانة وإذلال، فقد قبلت أن تصعد لزيارتها في مسكنها.

ونهض بواسو – زوج فرجيني – وحيا جرفيز باحترام عندما قدمته فرجيني إليها، ولم يلبث أن عاد إلى أدواته التي كان يصنع بها صندوق سجائر مطعم بالصدف والأبنوس. وكانت تلك هوايته أثناء انتظاره لأمر التعيين بالشرطة. وكلما فرغ من صندوق، باعه لتجار الهدايا والنحت، وكان ينفق خلال هذه الفترة من المال الذي ادخره أثناء تطوعه في صفوف الجيش. وكان رجلًا طويل القامة، هادئ السمت، تنم ملامحه عن الطيبة والبساطة.

وجلست المرأتان تتبادلان الأحاديث والذكريات. ولكن فرجيني

حرصت في كل أحاديثها على تجنب أية اشارة إلى أختها آديل وعشيقها لانتيير. وكانت جرفيز في أعماق نفسها تفزع من مجرد التفكير في هذا الاحتمال. احتمال أن تذكر فرجيني اسم لانتيير أمامها. ذلك إن كراهيتها له كانت قد بلغت حد الفزع من مجرد التفكير في سماع اسمه.

ولما انتهت الزيارة، وعدتها فرجيني بأن تردها لها في المحل، ثم صحبتها إلى باب البيت وودعتها قائلة:

– مع السلامة يا مدام كوبيو..

– شكرًا يا مدام يواسو.

وتوطدت أواصر الصداقة بين المرأتين، وأصبحت فرجيني لا تمر أمام المحل دون أن تدخل وتجلس فترات طويلة تتبادل الحديث والضحكات مع جرفيز وعاملاتها، ولا تتردد في أن تشرب معهن القهوة صباحًا أو بعض كئوس النبيذ مساء، حتى أصبحت موضع الحب والترحيب من الجميع.

ولكن جرفيز ظلت أسابيعا طوالًا وهي تفزع كلما خطر ببالها أن فرجيني تصطنع هذه الصداقة لأمر ما، أو أنها ستشير في أحاديثها إلى لانتيير وعشيقته آديل. ويبدو أن فرجيني كانت تدرك – بغريزتها– مخاوف جرفيز، فقالت لها ذات يوم وهما جالستان تشربان القهوة:

– تأكدي يا مدام كوبيو أن صداقتي لك الآن خالصة، ولا أحمل لك أية ضغينة، وإن ما حدث في المغسل لم يعد له أي تأثير في نفسي.

وجفلت جرفيز قليلًا، وأيقنت أن ذكر لانتيير لا بد أن يأتي على لسان

فرجيني بعد ذلك. وقد حدث ما كانت تخشى، إذا استطردت فرجيني قائلة بعد برهة صمت:

– لقد كان من حقك أن تغضبي وتثوري في ذلك اليوم بعد الذي حدث. ولو كنت في موضعك، لما ترددت في مطاردة آديل ولانتيير الخائن وقتلهما.. ولكن.. لا عليك.. لقد نالا جزاءهما العادل.إن علاقتهما لم تجلب عليهما إلى النحس والتعاسة. لقد رحلا يومذاك ليعيشا في غرفة قذرة بشارع لاجلاسيير القذر المليء دائمًا بالوحل. وقد ذهبت لزيارتهما بعد شهر من هربهما، فوجدتهما في حالة يرثى لها من النزاع والمشاحنة والخلافات الدائمة. بل أقسم لك يا عزيزتي إنهما كانا يتضاربان عندما وصلت إلى غرفتهما الحقيرة. حقًّا إن آديل لا تساوي الحبل الذي تشنق به. إنها أختي كما لا أنكر. ولكن هذا لا يمنعني من القول إنها أحقر مخلوقة على وجه الأرض. ولو أنها استطاعت أن تهرب مع زوجتي، لما ترددت. ولهذا فقد جئت به إلى هنا بعد أن قاطعتها وطلبت منها ألا تريني وجهها. ولو أني أخبرتك بما فعلته معي، لما فرغت في يومين. وأما لانتيير، فأنت تعلمين أنه أسوأ منها أخلاقًا.. إنه مثال للجحود ونكران الجميل.. إنه متعطل بطبيعته، يحب دائمًا أن يعيش على حساب غيره. ولكنه في نفس الوقت لا يتردد عن ضرب المرأة التي تعوله وتقيم أوده، وتعطيه ثمن الخمر التي يشربها.

وظلت جرفيز تنصت إلى أخبار لانتيير دون أن تلفظ بكلمة. ولكنها كانت تعجب من ذلك الشعور الذي استبد بها وهي تنصت. إنها لم تكن تشعر بالغيرة من آديل بعد ما حدث، وبعد مرور كل هذه الأعوام. ومع هذا كانت تشعر بابتهاج عجيب وهي تسمع أنباء الخلافات والمشاحنات العنيفة

التي كانت تقع بين آديل ولانتيير. وقد اشتد عجبها وهي تجد نفسها على استعداد لأن تبقى طيلة الليل منصتة إلى حديث فرجيني الهامس في أذنها. وكانت حريصة على ألا توجه أي سؤال حتى لا تبدو مهتمة بالأمر. إلا أنها كانت تشعر مع الاستمرار في الإنصات، كأن الفجوة العميقة التي كانت بينها وبين لانتيير بدأت تمتلئ تدريجيًّا، وكأنما حياتها السابقة قد اتصلت فجأة بحياتها الحاضرة.

ولما صمتت فرجيني برهة ريثما تضع قطعة سكر في فنجان قهوتها، قالت جرفيز في لهجة الإنسان الذي يوجه سؤالًا عابرًا:

– ألا يزالان يعيشان في شارع لاجلاسييه؟

فردت فرجيني على الفور:

– لا لا.. ألم أخبرك؟ لقد افترقا الآن، نهائيًّا.. وكان ذلك في الأسبوع الماضي. لقد جمعت آديل حاجاتها وهربت، ولم يحاول لانتيير أن يلحق بها.

وندت عن جرفيز صيحة خافتة وهي تقول:

– إذن فهما لا يقيمان معًا الآن.

وقالت كليمانس حين سمعت هذه العبارة:

– من هما..؟

ولكن فرجيني أسرعت تقول:

– إننا نتحدث عن أشخاص لا تعرفينهم.

وفي الوقت نفسه أدركت، حين نظرت إلى جرفيز، أن هذا الخبر قد ترك في نفسها أثرًا كبيرًا. ومن ثم أخذت – بإحساس من البهجة الشريرة – تردد القصة مرة أخرى، ثم تسألها هامسة:

– ماذا تفعلين يا عزيزتي لو حاول لانتيير أن يعود إليك؟

وقالت جرفيز بحدة رغم الصوت الهامس:

– إنني لن أقبل بحال أن أدعه يلمسني.. إنني الآن زوجة وحتى لو لم أكن زوجة، فقد أقسمت ألا يكون بيني وبينه شيء مدى الحياة.

ثم أردفت قائلة وهي تهز كتفيها:

– إنني أعترف بطبيعة الحال أن آتيين ابنه، وإن هذه الرابطة أقوى من أن أتجاهلها. فإذا كان لانتيير يريد أن يرى ابنه، فسوف أرسله إليه في أي وقت يشاء، لأن من المستحيل أن يحرم الإنسان أبًا من رؤية ابنه. أما من ناحيتي يا مدام بواسو، فإني أفضل الموت ألف مرة على أن يدعه يلمسني بطرف أصبعه.

وكانت ترسم في الهواء علامة الصليب وهي تقول العبارة الأخيرة، وفجأة التفتت إلى عاملاتها المتسكعات وقالت:

– ما هذا يا سيداتي؟ هل الملابس ستكوي نفسها بنفسها أو ماذا؟ هلم إلى العمل..

وبعد أن أسرعت العاملات إلى استئناف العمل، نهضت فرجيني، وقالت وهي تهم بالانصراف:

– يجب أن أعود إلى بواسو الآن، وإلا ظن أنني تجمدت في الطريق، يا لهذا الشتاء الرهيب!! ولكن يبدو أن سقوط الثلوج في الخارج قد توقف.

* * *

وكانت هذه الأحاديث التي تدار همسًا في ركن المحل، تترك دائمًا في أعماق نفس جرفيز إحساسًا ملتهبًا، وكأنما كان لانتيير قد ترك في هذه الأعماق جزءًا من نفسه. حقًّا إنها واثقة بنفسها، ومصرة على البقاء وفية شريفة حتى آخر لحظة من عمرها، ولم يكن إيمانها بالوفاء والشرف خاصًّا بزوجها كوبيو، وإنما لأنها أدركت تمامًا أن هذا الإيمان هو نصف السعادة في الحياة. ولم يكن كوبيو في الواقع يهمها كثيرًا. وإنما كان همها الأكبر هو ذلك الشاب كوجيت الحداد. كانت تفكر فيه وهي تشعر بالقلق والحيرة.. ذلك لأنه كان يخيل إليها أن ذكرى لانتيير تستبد بعواطفها تدريجيًّا، وتجعلها غير وفية لكوجيت. غير وفية لحبه الصامت، ولصداقتهما العذبة. وكانت لهذا تشعر بالحزن يملأ قلبها، ذلك أن كوجيت، في رأيها، هو لهذا تشعر بالحزن يملأ قلبها، ذلك أن كوجيت، في رأيها، هو الإنسان الوحيد الجدير بكل خلجة سامية نقية من عواطفها وحبها واحترامها. كان لها الرمز لكل إحساس نظيف بعيد عن كل الإحساسات الدنيئة التي كانت فرجيني تحاول أن تثيرها في نفسها بالحديث دائمًا عن لانتيير.

* * *

ولما أقبل الربيع أخذت جرفيز تلوذ بأفكارها إلى كوجيت. ذلك لأنها كانت تجد نفسها، كلما جلست بمفردها، تنزلق إلى التفكير في حبيبها الأول.

كانت تتخيله وهو منفصل عن آديل، ثم وهو يجمع حاجاته في الحقيبة القديمة ذاتها ليعود إليها. وكانت إذا خرجت تستبد بها المخاوف الحمقاء، ويخيل إليها أنها تسمع في الطريق وقع خطوات لانتيير وراءها. وفي هذه الحالة كانت تخشى من النظر وراءها وقد خطر لها أنه سيطوقها بذراعيه في أية لحظة. ومن المؤكد أنه يتجسس عليها، وأنه ينوي أن يفاجئها بالظهور ذات يوم وكان مجرد التفكير في هذا الاحتمال، يجعل العرق البارد يتفصد من جسمها، لأنه في هذه الحالة لا بد أن يقبلها في جانب عنقها كما كان يفعل في الأيام الخوالي.. وإذا قبلها في ذلك الموضع، فسوف تنهار كل مقاومة لها..

كانت عندما تستبد بها هذه الخواطر، تسرع بالذهاب إلى مصنع الحدادة الذي يعمل به كوجيت حيث تلوذ بحمايته، وتستمتع بالنظر إلى ذراعيه القويتين وهما تضربان الحديد وتصنعان منه الأقفال والرتاجات بمهارة عجيبة.

وكانت رنات المطرقة على الحديد كفيلة بطرد أفكار جرفيز السوداء بعيدًا عن ذهنها.

ورغم كثرة زيارتها له في مصنعه، لا تتبادل معه أكثر من عشر كلمات. كان يكفيها أن تجلس في ركن دافئ من المصنع، وهو يعمل، وترى العرق المتصبب من جسده القوي شبه العاري، وتلمح على وجهه إمارات العزم والقوة والتصميم وهو يطوع الحديد لإرادته.. وكان إذا طلب منها أن يخرج ليتمشى معها، رفضت بإصرار قائلة إن عمله أهم كثيرًا من خروجه معها.

وأخذت مخاوفها من لانتيير تتلاشى تدريجيًّا حتى استردت طبيعتها الهادئة مرة أخرى. وقد كان من الممكن أن تكون على أتم سعادة في تلك المرحلة

من عمرها لولا أن كوبيو كان ينحدر تدريجيًّا في الخمر، وقد رأته ذات مرة في حانة بيير كولومبس، في منتصف النهار، أي في الوقت الذي كان ينبغي فيه أن يكون في عمله، رأته في الحانة يشرب الخمر مع زملائه، ومع هذا أبت أن تجعله يراها، حتى لا يتهمها بالتجسس عليه.

وفي نفس هذا اليوم، فوجئت، حين عادت إلى البيت، بعدد كبير من الناس مجتمعين أمام البيت، فلما سألت عن السبب، قالت لها كليمانس:

– إن العجوز بيجارد، المقيم في المسكن المجاور لمسكنك مباشرة، يضرب زوجته الحامل ضربًا مبرحًا.. لقد عاد منذ قليل وهو مخمور، ثم كمن لها وراء الباب حتى عادت من المغسل، ثم فاجأها بالضرب والركل حتى سقطت مدرجة بالدماء. ألا تسمعين صراخها.

وسمع الجميع في تلك اللحظة صوت البواب بوش وهو يصيح في العجوز بيجارد مهددًا:

– إذا لم تكف عن ضربها فسوف استدعي رجال الشرطة..

وكف الزوج المخمور عن ضرب زوجته بعد أن فقدت الرشد. ولما ساءت حالتها، حملت إلى المستشفى حيث ماتت.. ولكنها قالت قبل أن تموت إنها سقطت فوق السلم، ومن ثم حدثت لها تلك الإصابات الظاهرة في جسدها..

لقد رفضت الزوجة الوفية أن تدين زوجها حتى لا يحمل إلى السجن فتحرم بناتها الثلاث من الألم والأب في وقت واحد.

وفي تلك الليلة، سمعت جرفيز زوجها كوبيو وهو يعود مترنحًا مخمورًا.. ولما حاولت أن تساعده على الرقاد، دفعها بعيدًا عنه وهو يدمدم بكلمات غامضة، ويرسل إليها نظرات نارية.. نظرات الرجل الذي يريد أن يرتكب جريمة بلا سبب، أو بسبب لا يعرفه أحد غيره.وسقط على فراشه، ولم يلبث أن استغرق في النوم، وراح يرسل غطيطه عاليًا.

إنه مثل السكير بيجارد.. وأن جرفيز لتشعر بالفزع يسري وهي تفكر في الرجال جميعًا.. في لانتيير وفي كوبيو، وفي بيجارد.. ولكن هذا الفزع تحول إلى اطمئنان حين فكرت في كوجيت.

الفصل الثامن

في اليوم التاسع عشر من شهر يوليو. كانت جرفيز في أوج سعادتها، وهي تحتفل بعيد ميلادها. وكانت هي وكوبيو قد قررا أن يحتفلا به احتفالًا يجعل الجيران والأهل والأصدقاء يتحدثون عنه أيامًا وأسابيع.. وتم إعداد كل شيء وتوسطت المائدة في المحل أوزه ضخمة يحف بها ألوان من الأطعمة والمشروبات المختلفة، وكان المدعوون مع العاملات الثلاث أربعة عشر، بينهم مدام لوريليو وزوجها اللذان قررا أن يتقربا من جرفيز حتى لا تفوتهما هذه الوليمة، وبينهم أيضًا مدام بوش البوابة وزوجها وابنتهما التي كانت في مثل سن نانا، والجار العجوز المتعطل مسيو برو، ومدام ليرات، وفرجيني وزوجها الشرطي بواسو والحداد الشاب كوجيت الذي جاء بمفرده معتذرًا عن والدته..

وبعد الفراغ من الطعام، بدأ الجميع يشربون في تمهل واستمتاع، بينما تطوع العجوز برو للغناء. وفيما كان يغني ملحمة "البطل عبد القادر" إذا بفرجيني تنحني على أذن جرفيز وتقول:

– اسمعي يا عزيزتي.. تمالكي نفسك.. لقد رأيت اليوم لانتيير.

وكادت الكأس تسقط من يد جرفيز لولا أن تمالكت نفسها ثم همست:

– أين؟

– في طريقي وأنا آتية إلى هنا. لقد رأيته يحوم في الشارع، ثم يدخل فرانسواز..

وتمتمت جرفيز قائل كأنما تحدث نفسها:

– أرجو أن يكون قد انصرف إلى حال سبيله..

وهزت فرجيني رأسها وقالت:

– لا.. لقد رأيته الآن.. في الجانب الآخر من الطريق.. أمام المحل مباشرة.

وكان المدعوون يجلسون في المحل، وقد اتخذوا من طاولة الكي، مائدة يأكلون عليها، وكان ثمة نافذة بجوار الباب تطل على الطريق، وتصادف أن كانت فرجيني وجرفيز جالستين في مواجهة هذه النافذة، ومن ثم راحت جرفيز تتظاهر بالنظر إلى الشارع، بينما كان العجوز برو سادرًا في ترديد ملحمته الشعبية المؤثرة.

ولمحت جرفيز حبيبها القديم لانتيير واقفًا في سكون بالجانب الآخر من الطريق، أمام النافذة مباشرة. وشعرت بالبرودة تسري في جسمها ابتداء من ساقيها، متسللة إلى رأسها، مارة بقلبها. ولم تستطع أن تبارح مكانها.. وفيما ظل العجوز برو يردد قائلًا:

ترالللا لا.. ترالللا لا.. ترالللا لا!

وقال له كوبيو الذي كان بدأ الشراب يشعشع في رأسه:

– كفي هذا الجزء من الملحمة يا مسيو برو.. وغدًا نسمع الباقي..

وضحك الجميع.. ونظر العجوز حوله في بلاهة، ثم عاد إلى حالته السابقة، قبل الغناء، من السكون والذهول.

وأصر الجميع على أن يسمعوا مدام ليرات في أغنيتها المحبوبة، "يا إله السما!" ولم يسع مدام ليرات إلا أن تستجيب لرغبتهم، فراحت تردد الأغنية العاطفية الرقيقة بصوتها العذب الحاني. وكانت وهي تغني تمثل المواقف الدرامية بيديها وعينيها.. فهي حينًا تضع يدها اليمنى على صدرها وتتأوه.. وحينا تضع يدها اليسرى على قلبها وتتنهد.. ثم ترفع عينيها إلى السماء في دعاء وابتهال؛ لكي يحفظ الله حبيبها الفاضل في جبهة القتال..

ولم تستطع جرفيز، وهي في تلك الحالة العنيفة من الاضطراب بسبب رؤيتها للانتيير أن تمنع دموعها من الانحدار على وجنتيها. لقد شعرت كأن الأغنية تعبر عن أحزانها.. وتصورها كطفل ضائع.. طفل محروم.. ليس له من معين غير الله. وانفجرت كليمانس.. التي لعبت الخمر برأسها باكية ثم وضعت رأسها على حافة المائدة، وأخذت تكتم شهقاتها في المفرش.. وخيم على الجميع سكون مشحون بالتوتر العاطفي.. وأخرجت النسوة مناديلهن ليمسحن دموعهن. وتجمدت نظراتهن أمامهن على الأرض، وانحدرت دمعتان كبيرتان على وجه الميو بوش، البواب، وأخذ بواسو – الشرطي – يدخن غليونه بعصبية. ولاح بوضوح أن الخمر بدأت تلعب برءوسهم جميعًا..

ولكن جرفيز وفرجيني رغمًا عنهما. لم يستطيعا أن تحولا عيونهما عن الجانب الآخر من الشارع. ثم لمحت مدام بوش بدورها لانتيير فأرسلت صيحة اندهاش خافتة، ثم بادرت إلى كفكفة دموعها بمنديلها. وشرعت النساء

الثلاث يتبادلن النظرات في قلق.. يا للهول.. لو أن كوبيو استدار برأسه قليلًا لرآه أيضًا، وعندئذ ماذا سيحدث؟ إن معركة دموية ستقوم بينهما. ولاحظ كوبيو نظرات النسوة القلقة، فهتف قائلًا:

– ماذا حدث؟ لماذا تنظر إحداكن إلى الأخرى هكذا؟

ثم استدار برأسه ورأى لانتيير، فضرب المائدة بقبضة يده، وهتف قائلًا:

– يا للشيطان.. إن هذا أكثر مما يحتمل.. ماذا يريد هذا الكلب القذر من وقوفه أمامنا هكذا؟ لسوف أعرف كيف أهذبه.

ثم اختطف السكين من فوق المائدة، ونهض مترنحًا، ولكن جرفيز أمسكت بذراعه، وهمست له متوسلة:

– كوبيو.. أرجوك.. لا ترتكب عملًا طائشًا.. ضع هذه السكين في مكانها..

واستطاعت فرجيني أن تأخذ السكين منه، ولكنها عجزت عن منعه من الخروج إلى الشارع لملاقاة لانتيير. أما الباقون، الذين كانوا مستغرقين في انفعالاتهم، فإنهم لم يروا شيئًا، ولم يسمعوا شيئًا، وإنما ظلوا يتمايلون ويمسحون دموعهم وهم منصتون بكل مشاعرهم إلى غناء مدام ليرات.

واختتمت هذه العبارات الأخيرة من الأغنية بتنهدات عميقة كأنها الأنفاس الأخيرة لعاصفة. وبلغ من اضطراب وانفعال مدام بونوا أنها أسقطت الكأس من يدها حين همت برفعها إلى شفتيها. وظلت متجمدة في مكانها، ضاغطة بيدها على فمها حتى لا تند منها صيحة رغمًا عنها، وبينما أخذت

أجفانها ترتجف بالخوف خشية أن ترى الرجلين يتقاتلان في وسط الشارع. وكانت مدام بوش وفرجيني ترقبان ما يحدث في اهتمام شديد. أما كوبيو، فقد تعثر في خطواته عندما خرج إلى الهواء الطلق، وكاد يسقط بجوار البالوعة أمام المحل ثم كاد يسقط مرة أخرى، وهو يندفع نحو لانتيير الذي تزحزح قليلًا، وهو واضع يديه في جيوب سراويله. ولم يلبث الاثنان أن دخلا في مباراة عنيفة من الشتائم والسباب. فقال كوبيو للانتيير إنه خنزير قذر، وإنه لا يستطيع أن يعيش إلا بين القمامة والقذارة.. وارتفعت أصوات الرجلين وهما يلوحان بأذرعهما في غضب. وتخافتت جرفيز في مقعدها وأغمضت عينيها بعد أن عجزت عن الاستمرار في النظر والإنصات. ولما لم تعد تسمع شيئًا، فتحت عينيها وتسمرت في مكانها حين رأتهما يتبادلان الحديث في هدوء.. وابتسام!

وعلقت مدام لوريليو على الكلمات الأخيرة من أغنية مدام ليرات التي كانت تعيد ترديدها:

– حقًّا إن بعض النساء فاجرات بطبعهن.

وتبادلت جرفيز النظرات مع فرجيني ومدام بوش كأنما تقول كل منهن للأخرى إن الرجلين يتصالحان ويتصافيان، بل ويتمشيان معًا على الطوار جيئة وذهابًا بعد أن انفض الناس الذين اجتمعوا حولهما للفرجة عليهما. وفجأة بدا كأن كوبيو قد غضب مرة أخرى، بينما وقف لانتيير في مكانه كأنه يرفض أن يستجيب له. وكان كوبيو السباك، هو الذي أخذ يجر لانتيير من ذراعه نحو المحل ويرغمه على الدخول قائلًا في صوت مرتفع:

– إنني مصر على رأيي وأعني ما أقول.. يجب أن تدخل وتشرب معنا كأسًا.. إن الرجل رجل.. فلماذا لا نكون صديقين؟

ونظر الجميع إلى لانتيير الذي لم يكن معروفًا لأحد منهم إلا لمدام بوش وفرجيني. ولكن كوجيت – الذي كان قد سمع عنه – راح ينظر إليه في ريبة وتوجس.

وقال كوبيو ببساطة للجميع:

– هذا صديق لي..

ثم أردف قائلًا لزوجته:

– هلم.. تحركي.. ألا يوجد شيء من النبيذ.

وحملت جرفيز إليهما، الواحد بعد الآخر، في ذهول وتبلد.. وكانت عندما رأت زوجها يدفع بحبيبها القديم إلى المحل، قد أمسكت رأسها بيدها كما اعتادت أن تفعل حين تنفجر عاصفة برقية. إن هذا غير ممكن.. لا شك أن العاصفة سوف تدمر المكان وتسقط الجدران عليهم جميعًا. ولكن عندما رأتهما جالسين جنبًا إلى جانب أمامها، بدا لها أن كل شيء قد أصبح طبيعيًّا، وأنها لم تعد تريد شيئًا أكثر من أن تترك وشأنها بلا مخاوف أو قلق أو ألم.. يا للسماء؟ لماذا تحمل هي أدران الحقد أو الغضب على أحد ما دام غيرها لا يهتمون بشيء.. لماذا تظل نافرة أو غاضبة من لانتيير ما دام زوجها يستقبله على هذا النحو؟ إن خير ما يمكن أن تفعله أن تترك الأمور تجري على هواها. دون أي إحساس بالقلق أو الخوف..

ونهضت لتحضر زجاجة شراب.

وفي الغرفة الخلفية، كانت الطفلتان، نانا وبولين ابنة البواب بوش، قد استغرقتا في النوم. وكذلك كان آتيين، مستغرقًا في النوم بعد أن امتلأت معدته بالطعام.

وتلقت جرفيز صدمة أخرى عندما وقعت عيناها على آتيين. لقد تذكرت في تلك اللحظة أن أباه الآن بالقرب منه، يتناول شطيرة. دون أن يعرب عن رغبته في رؤية ابنيه! وخطر لها في أول الأمر أن توقظ الغلام ليرى أباه، ولكنها رأت أن جو الحفلة لا يحتمل مزيدًا من التوتر العصبي، وقررت أن ترجئ هذا اللقاء بين الابن وأبيه إلى لحظة أخرى..

وعادت بزجاجة النبيذ، وقدمت منه قدحًا إلى لانتيير الذي بدا عليه أنه لا يراها أو يحس بوجودها.

وكان كوبيو يقول مخمورًا:

– لقد جاء دوري في الغناء.. لسوف أغني لكم أغنية "أين أنت يا حبيبي؟ وصاح المدعوون جميعًا وقد نسوا أمر لانتيير قائلين:

– هلم يا أوجست.. هلم.. لسوف نشترك معك في الترديد والموسيقى. وتناولوا ملاعقهم والشوك استعدادًا للرنين بها على الزجاجات والكئوس الفارغة..

ولم يلبث المارون بالشارع أن اشتركوا في الغناء، حتى بدأ كأن جميع أصحاب المتجر القريبة قد سكروا أيضًا. وبلغ من فرط الضجيج أن اثنين

من رجال الشرطة ظنا أن حادثًا وقع أمام المحل، فأسرعا يستطلعان الخبر، فلما رأيا بواسو بين المدعوين في المحل أومآ برأسيهما وانصرفا..

وارتفعت عقائر المنشدين حتى خيل لجرفيز أن سقف المحل سينهار عليهم جميعًا.. وظل الاحتفال على هذا النحو حتى أوغل الليل. ولم يذكر أحد كيف انتهت الحفلة. فلا شك أنها انتهت في ساعة متأخرة من الليل. ولا شك أنهم رقصوا متماسكين بالأيدي حول المائدة. وأخيرًا أخذ الجميع ينصرفون، الواحد بعد الآخر، وهم في حالة شديدة من السكر. ولم تدر جرفيز أيضًا متى انصرف الجميع.. كل ما تذكره أنها استيقظت في ساعة متأخرة من صباح اليوم التالي مثقلة الرأس لتجد نفسها راقدة على أرضية الغرفة الخلفية بجوار كوبيو..

وفي مساء يوم الأحد التالي، أقبل كوبيو في نحو الساعة العاشرة ومعه لانتيير، وكانا قد تناولا عشاءهما في مطعم توماس بحي مونمارتر. ولما رأى كوبيو زوجته تقطب جبينها، قال مسرعًا:

– لا داعي للغضب يا جرفيز.. إننا لسنا سكرانين.. إن لانتيير لا يحب أن يشرب حتى فقدان الوعي..

ثم أخبرها كيف التقى به مصادفة في شارع ردشيكورت وكيف أن لانتيير رفض أن ينتقل معه، بعد العشاء، إلى حانة أخرى قائلًا إن الرجل المتزوج من سيدة جميلة، لا ينبغي أن يقضي سهرته متنقلًا من حانة إلى أخرى. وأنصتت جرفيز وهي تبتسم.. لا.. إنها ليست غاضبة.. بل إنها كانت – منذ حفلة عيد ميلادها – تنتظر أن ترى لانتيير يعود لزيارتها في أية لحظة.

ولكنها لم تكن تتوقع أن تراه يأتي في مثل هذه الساعة التي كانت تستعد فيها للنوم. وبيدين مرتعشتين، أخذت تعيد قص شعرها بعد أن كانت قد تركته يسترسل على كتفيها..

وقال كوبيو:

– اسمعي يا عزيزتي.. ما دمنا قد رفضنا أن نشرب في الخارج فلا أقل أن تقدمي لنا شيئًا من الشراب هنا..

وكانت العاملات في المحل قد انصرفن منذ مدة طويلة. وكانت نانا نائمة في فراش واحد مع جدتها مدام كوبيو العجوز، وكانت جرفيز قد شرعت في إغلاق المحل عندما أقبل الرجلان. ومن ثم تركت الباب مفتوحًا وهي تضع الكئوس وبقية زجاجة براندي..

ولم يقبل لانتيير أن يجلس. بل كان يرفض الحديث معها مباشرة إلا أنه قال حين أخذت تصب الخمر في كأسه:

– مقدار قيراط واحد يا مدام من فضلك..

ونظر كوبيو إليهما في دهشة ثم قال:

– ما هذا؟ إنكما تتحدثان كأنكما غريبان! لماذا هذا التكلف؟ إن ما فات قد فات.. ولا ينبغي أن يحمل أحد للآخر في نفسه شيئًا بعد مرور تسعة أعوام.. بل عشرة..

ثم ضحك وقال:

– إنني رجل بسيط مسالم.. وأنا أعرف أنني أعتمد على رجل شريف..

وعلى زوجة شريفةوإن ضميري مستريح، وقلبي مطمئن وأنا أصلح بينمكا..

وقالت جرفيز وهي تطرق برأسها في اضطراب:

– نعم.. نعم.. هذا صحيح..

وغمغم لانتيير وقال:

– إنني الآن أنظر إليها كأخت..

وهتف كوبيو عندئذ في حماس:

– إذن تصافحا.. وليقل الأغبياء الحمقى ما يقولون. إن كل انسان حر فيما يفعل ما دام لا يؤذي أحدًا.. وإني أفضل هذا الوفاق بيننا على مليون فرنك. لأن الصديق في رأيي لا يقدر بمال.

وأخذ من فرط حماسه يضرب صدره بيديه حتى اضطر لانتيير إلى تهدئته..

وتلامست كئوسهم، وشربوا في صمت.. واستطاعت جرفيز في النهاية أن تنظر إلى لانتيير مباشرة.. أما في يوم الحفلة، فكانت تراه من خلال ضباب الخمر، لقد بدا لها الأن أكبر حجمًا.. ممتلئ الجسم. مكتظ الذراعين والساقين، منتفخ الوجه بحياة كلها الترف والكسل. أما ملامحه فقد ظلت على ما كانت عليه من وسامة وتناسق، أما شاربه الصغير فقد بدا مهذبًا بعناية، وكان على الجملة يبدو أصغر من سنه.. أصغر من خمسة وثلاثين عامًا! وكان يرتدي سراويل رمادية، ومعطفًا أسود حسن التفصيل، وقبعة مستديرة، من طراز قبعات السادة المترفين، وكذلك كان يتزين بخاتم ذهبي

وسلسلة ذهبية.. وبعد أن شرب كأسه، قال وهو ينصرف:

- يجب أن أرحل الآن.. إن علي أن أقطع مسافة طويلة حتى أصل إلى مسكني..

ولكن كوبيو أمسك بذراعه وقال له:

- عدنا أن تزورنا كلما مررت بهذا الشارع.

ووعد لانتيير أن يفعل. وفي تلك اللحظة عادت جرفيز من الغرفة الخلفية وهي ممسكة بيد الغلام آتيين الذي كان يغالب النوم بجهد. وأخذ الغلام يبتسم ويفرك عينيه. ولكنه توقف في مكانه مضطربًا حين رأي لانتيير، وأخذ ينتقل بنظراته بين أمه وكوبيو.

وابتسم كوبيو للغلام.. ثم أومأ برأسه نحو لانتيير الذي كان ينظر إلى ابنه في دهشة، ثم قال:

- هل تعرف هذا المسيو يا آتيين؟!

وأطرق الغلام بنظراته إلى الأرض دون أن ينطق بكلمة، ولكنه أومأ برأسه كأنما يريد أن يقول "نعم".

وقال كوبيو برفق:

- إذن لماذا تقف هكذا؟ ألا ترى أن من الواجب أن تسرع إليه وأن تقبله!!

ووقف لانتيير ينتظر في هدوء. ولما جمع آتيين شجاعته واقترب منه، انحنى عليه، وأخذ وجهه بين يديه وقبله في جبينه قبلة حارة. ثم نظر الصبي

إلى أبيه ولم يلبث أن انفجر باكيًا، واندفع عائدًا إلى غرفة النوم دون أن ينوي على شيء.

وقطب كوبيو جبينه وقال في دهشة:

– ماذا دهى الغلام؟ أهكذا يستقبل أباه.

وقالت جرفيز مدافعة عنه:

– إن المسكين لم يحتمل مفاجأة رؤيته لأبيه هكذا.

وكانت تتحدث بوجه شاحب، وجسم مرتعد.

وقال كوبيو:

– إنه هادئ الطباع دائمًا.. وقد عرفت كيف أحسن تربيته يا عزيزي لانتيير.. اطمئن من هذه الناحية. ولا شك أنه سيعتاد على لقائك تدريجيًّا. والآن.. ألا ترى أن من الواجب أن نبقى أصدقاء ولو من أجل هذا الغلام فقط؟ نعم.. يجب أن نستعين بكل صفاتنا الإنسانية حتى لا نحرم والدًا من ابنه.

ثم اقترح أن يشربوا كأسًا أخرى بهذه المناسبة.. ومرة ثانية تلامست كئوسهم، وشربوا.. وأصر لانتيير على أن يساعد كوبيو في إغلاق نوافذ وباب المحل. ولما فرغ، نفض عن ملابسه النيقة التراب ثم قال باسمًا:

– أتمنى لكما نومًا هادئًا.. ويجب أن أسرع الآن قبل أن تفوتني آخر سيارة عامة. وسوف أزوركما في أقرب وقت.

الفصل التاسع

استمر لانتيير في التردد على شارع لاكوت دور حيث يزور آل كوبيو. وكان في أول الأمر حريصًا على دخول المسكن عندما يكون كوبيو موجودًا به. فكان يسأل عنه قبل أن يدخل، متظاهرًا بأنه جاء من أجله فقط. فإذا لم يكن موجودًا، اكتفى بالجلوس بجوار نافذة المحل، مرتديًا ملابسه الكاملة، حليق الوجه، ممشط الشعر، مهذبًا في حديثه كأي إنسان مثقف. وأخذ آل كوبيو، شيئًا فشيئًا يعرفون تفاصيل حياته في السنوات التي غابها.. عرفوا منه أنه كان مديرًا لمصنع قبعات، ولكن أحد الشركاء في المصنع ضيع رأس المال على الخمر والنساء، وأنه منذ ذلك الحين لا يقبل أن يعمل بيديه بعد أن كان مديرًا.. ولهذا فهو يبحث عن العمل المناسب لمؤهلاته. ولكن الجميع كانوا يدركون أن له مورد رزق خفيًا، وإلا فمن أين له كل هذه الملابس والمظاهر البراقة. وكان حريصًا على أن يبدو غامضًا في كل شيء.. حتى في مسكنه.. إذ قال إنه يقيم مع صديق في مسكن بحي بعيد جدًّا، ولكنه يبحث عن مسكن قريب من المحل.

وبعد ذلك أخذ لانتيير – وكان فصل الخريف على الأبواب – يحمل باقات زهور البنفسج لجرفيز والعاملات، ويكثر من زياراته لهن حتى أصبحت هذه الزيارات يومية. وكان يعرب عن رغبته لأن يكون موضع الحفاوة والترحيب من جميع سكان الشارع. ولهذا حرص على أن يعامل الجميع برقة وأدب، وأن ينتهز كل فرصة لمجاملتهم وتقديم بعض الخدمات لهن. وكانت

النتيجة أن العاملات في المحل أصبحن، بعد شهر واحد، يقدسنه وينتظرن زيارته بفارغ الصبر. وكذلك كان موقف مدام بوش وزوجها. ولم يلبث أن اتسع نطاق هذا الشعور بين جميع أصحاب وصاحبات المتاجر القريبة. وهكذا تحول سخط الجميع وتقولاتهم عن عودة العلاقة القديمة بين جرفيز ولانتيير، إلى احترام ومودة وتقدير.

ولكن كوجيت – الحداد الشاب – كان فقط الذي اتخذ موقفًا سلبيًّا من لانتيير.. كان يترك المحل وينصرف كلما رآه مقبلًا حتى يضطر إلى التعرف به أو إنشاء علاقة صداقة معه.

وفي الوقت الذي كان فيه لانتيير يوثق علاقات المودة مع الجميع، كانت جرفيز في الأسابيع القليلة الأولى، تعيش في حالة من الحزن والأسى. كانت لا تزال تشعر في أعماق نفسها بذلك الإحساس المثير الذي خامرها يوم حدثتها فرجيني عن لانتيير أول مرة. وكان أشد ما تخشاه أن تعجز عن مقاومته إذا جاء ذات ليلة ورآها بمفردها وأراد أن يقبلها.. ومن ثم كانت تفكر فيه كثيرًا، وتشعر به أكثر مما تريد. ولكن مخاوفها لم تلبث على أية حال أن هدأت تدريجيًّا عندما رأته يتصرف كرجل مهذب، إذ لم يحدث قط أن حاول أن يختلس إليها النظرات، أو أن يلمس يديها من وراء ظهور الغير. وعدا هذا فقد جعلتها فرجيني – التي لاح أنها قرأت أفكارها – تشعر بالخجل من إحساساتها هذه. ما الذي يخيفها من رجل مهذب كهذا؟ ماذا يمكن أن يفعله لانتيير بعد أن أصبح على هذا النحو من الأدب وحسن السلوك؟ وقد استطاعت فرجيني ذات يوم أن تجمع بينهما على انفراد، وأن تحول مجرى الحديث إلى الحب. فقال لانتيير، بصوت حزين، إن قلبه قد

مات، وإنه لم يعد يريد من الحياة إلا أن يوفر السعادة لابنه المسكين. ولم يحاول قط أن يشير في أحاديثه إلى ابنه الاكبر كلود الذي كان يعيش في الجنوب.. في بلاسان. وكان يقبل آتيين كل مساء في جبينه، ولا يدري ماذا يقول له إذا مكث معه في الغرفة بعض الوقت ليلًا، ثم ينساه تمامًا عندما يشعر في تبادل الثناء والمديح مع كلميانس. وهكذا لم تلبث جرفيز أن اطمأنت إليه وإلى حسن سلوكه. وكان وجوده أمامها دائمًا قد أحسن إليها من ناحية أخرى، إذ أنقذها من ذلك الشوق الخفي الذي كان يشدها الى ذكريات الماضي.. في بلاسان.. وفي فندق بونكير.. إنها لم تعد تتعذب، خفية بهذه الأشواق، ولم تعد تحلم بتلك الذكريات. بل وأكثر من هذا أخذت تحس بالنفور والاشمئزاز من تلك العلاقة السابقة التي ربطتها بلانتيير يومًا ما.. آه.. لقد انتهى هذا كله الآن. انتهى إلى الأبد. وإذا حاول يومًا أن يعيد هذه العلاقة معها، فسوف تصفعه وتخبر زوجها إذا لزم الامر. أما عواطفها نحو كوجيت، فهي أجمل وأسمى شيء في حياتها.

وفي ذات صباح، قالت كليمانس إنها رأت لانتيير في الليلة السابقة يدخل مع امرأة شقراء على جانب كبير من الجمال إلى مسكنها في شارع نوتردام دي لوريت، وأنها حين سألت البواب عنها، عرفت أنها من غواني حي مونمارتر.

ولما أقبل لانتيير في المساء، أخذت كليمانس تعاتبه وتداعبه وتذكر له أنها شاهدته في الليلة السابقة مع غانية معروفة، ولم يغضب لانتيير من مداعبة كليمانس، وإنما بدا عليه أنه ابتهج لرؤيتها له مع تلك الغانية. وقد كافأها على هذه المداعبة بأن قرصها بضع مرات في ظهرها دون أن يراه أحد..

وضحكت هي لمداعبته وقالت إنها كانت تتمنى لو تعطرت برائحة المسك التي كانت الغانية تتعطر به.

ولما أقبل الربيع أصبح لانتيير كفرد من أفراد الأسرة، وأكثر الحديث عن رغبته في الانتقال الى مسكن بالشارع ليكون قريبًا من أصدقائه وأحبابه. وقال إنه في حاجة الى غرفة مفروشة بمنزل محترم. وبذلت مدام بوش، وجرفيز، جهودهما في البحث له عن بغيته. وكلما عثرا له على غرفة، رفضها قائلًا إنه يريد غرفة لطيفة تطل على فناء واسع، مثل الغرفتين الخلفيتين للمحل. وكان دائمًا يقول لكوبيو:

– حقًّا إنك لرجل سعيد الحظ إذ عثرت على المسكن المريح المستقل.

وفي ذات ليلة، بعد أن فرغ من العشاء مع كوبيو وجرفيز، تحول الحديث إلى أمنيته في العثور على مسكن مريح مثل مسكنهما.

وهنا صاح كوبيو الذي كانت الخمر قد بدأت تشعشع في رأسه:

– ولماذا لا تقيم معنا أيها الصديق؟ إننا نستطيع أن ندبر لك مكانًا بيننا إذا قبلت!

ثم أردف قائلًا إن الغرفة الصغيرة التي تستعمل مخزنًا للملابس المتسخة، والتي ينام اتيين في ركن منها، يمكن أن تنظف وأن تخصص لإقامة لانتيير، على أن يوضع سرير اتيين في ركن بالمحل وراء ستارة صغيرة.

وهتف لانتيير قائلًا:

– لا لا.. لا أستطيع أن أقبل. إن هذا الكرم أكثر مما يمكن أن أقبله.

وحتى إذا قبلت، فكيف يمكن أن أدخل الغرفة الأخيرة دون أن أمر على الغرفتين الأوليين؟.. إن هذا وحده لا يليق.

وضحك كوبيو عاليًا وقال:

– آه أيها الخبيث! إنك تفكر دائمًا في هذا الجانب! ولكن.. ألا ترى أن في الإمكان التغلب على هذه المشكلة؟ ألا ترى أنه من الممكن تحويل نافذة غرفة المخزن الى باب فتصبح مستقلة، لها مدخلها الخاص من الفناء؟!

وصمت لانتيير برهة، ثم قال:

– آه.. إذا كان الأمر كما تقول، فمن الممكن أن أقبل.. ولكن.. لا لا.. أخشى أن أثقل عليك وعلى مداد جرفيز..

وكان حريصًا على تجنب النظر إلى جرفيز التي فوجئت باقتراح زوجها، ولكنها ما كادت تتذكر أن الغرفة بعد تأثيثها يمكن أن تؤجر بعشرين فرنكًا في الشهر، حتى أومأت برأسها وقالت:

– لا لا.. إنك لا تثقل علينا في شيء.. وسوف نحاول أن..

وبادرت مدام كوبيو العجوز التي طالما أتحفها لانتيير بأقراص الحلوى. فقالت مؤيدة:

– إن وجودك بيننا سوف يسعدنا جميعًا.

ولما أراد لانتيير أن يتمادى في الاعتذار، صاح كوبيو مناديًا على انتيين، فأقبل الصبي وهو يفرك عينيه مغالبًا النوم، وهنا قال له كوبيو مشيرًا إلى لانتيير:

– قل له يجب أن تقيم معنا يا أبي.. قل له هذا..

وطرف الصبي بعينيه ثم نظر إلى أبيه وقال:

– يجب أن تقيم معنا يا أبي

وقال لانتيير وهو يتظاهر بمسح دموعه:

– إنني أقبل.. أقبل هذا الكرم البالغ يا أصدقائي.. وأقبل من أجل الصبي أيضًا.

وفي اليوم التالي بدأ العمل – بعد استئذان صاحب البيت – في تحويل نافذة غرفة المخزن إلى باب يؤدي الى الفناء، بجوار الباب المؤدي إلى الغرفتين الأخريين.

ورغم أن تأثيث الغرفة قد زاد من ديون جرفيز مائة فرنك إلا أنها كانت تعزي نفسها بالأمل في أن مبلغ العشرين فرنكًا الذي سيدفعه لانتيير إيجارًا للغرفة كل شهر، كفيل بتسديد هذا الدين الجديد، وجانب من الدين القديم.

وبدأ لانتيير إقامته في الغرفة في أوائل شهر يونيه. وما كادت جرفيز ترى الحقيبة الكبيرة القديمة فيها، حتى شحب وجهها وأحست بكل ذكريات الماضي تطوف بها وتملأ عليها حياتها.

وكان لانتيير يتناول وجبات الطعام في مطعم فرانسواز، في منعطف شارع دى مواسنيير. ولكنه كان يتناول عشاءه ثلاث أو أربع مرات في الأسبوع مع كوبيو وزوجته. وأخيرًا عرض على الزوجين أن يتناول معهما وجبات الطعام مقابل خمسة عشر فرنكًا كل أسبوع. ومنذ ذلك الحين وهو لا يكاد

يفارق المكان.. كان يرى وهو يدخل ويخرج ويجلس في المحل كواحد من أفراد الاسرة. وأكثر من هذا بدأ يرفع صوته، ويصدر أوامره ويتعامل مع الزبائن، ولما ضاق بشرب الخمر في الخارج، طلب من جرفيز أن تأتي إليه بحاجته من الشراب في المحل أو في غرفته. وشيئًا فشيئًا أخذ لانتيير يفرض نفسه على الأسرة. وأكثر من هذا بدأ يرفع صوته، ويصدر أوامره ويتعامل مع الزبائن، وكان حريصًا على أن يقوم بدور حمامة السلام بين الجميع. فإذا قام نزاع بين جرفيز وحماتها مدام كوبيو، تدخل بينهما وراح يلقى عليهما المواعظ في كيفية التسامح ووجوب العمل على تصفية ما يقوم بينهما من مشاحنات أولا بأول. وإذا اختلفت جرفيز مع زوجها في شيء ما، ثم تمادى الخلاف إلى تبادل الشتائم والضربات، أسرع ووفق بينهما وأعاد السلام في حياتهما. واستطاع أن يكتسب محبة الطفلة نانا عندما حرص على أن يقف بجانبها ضد ابنه اتيين كلما اختلف الطفلان في شيء ما.

ومر عام على هذا النحو.. وكان الجيران يعتقدون أن للانتيير دخلًا خاصًا ينفق منه على نفسه وعلى آل كوبيو، ذلك لأنه لم يكن هناك تفسير آخر لمستوى المعيشة الذي تحيا عليه الأسرة. حقًّا لقد كانت جرفيز تكسب من المحل، إلا أنها كانت مضطرة للإنفاق على رجلين متعطلين، فضلًا عن حماتها وابنها وابنتها.. كما أن العمل في المحل لم يكن كالعهد به.. فقد أخذ العملاء يتناقصون تدريجيًّا على نحو ما، كما أخذت العاملات يهملن في عملهن ويعبثن مع لانتيير كلما سنحت لهن الفرصة. وأسوأ من هذا أن لانتيير كان قد توقف عن دفع الإيجار بعد الأشهر القليلة الأولى من إقامته، ثم توقف عن دفع نفقات طعامه وشرابه، وكان يزعم لجرفيز أنه سيدفع لها جميع

المبالغ المتأخرة عليه عندما يوفق الى المنصب الكبير المناسب له.

ويئست جرفيز في النهاية من مطالبته، وأصبحت تعتمد في معظم معاشها على الشراء بالنسيئة، وهكذا لم تلبث أن أصبحت مدينة للبقال والجزار والخباز والفحام واللبان، كما تراكم عليها إيجار المحل والمسكن، إلا أنها كانت تبدو مخمورة بهذه الديون المتراكمة، ولم يعد يهمها إلا أن تحصل على أطيب ألوان الطعام والشراب وأجمل الملابس ما دامت لا تدفع الثمن نقدًا.. ومع هذا كانت نواياها حسنة.. كانت تأمل في اليوم الذي تكسب فيه مائة فرنك يوميًّا.. ولكنها لم تكن تعرف كيف سيتحقق هذا الأمل. وكان طبيعيًّا أن تزداد أحوالها المالية اضطرابًا.. وكلما ازدادت، أخذت تتحدث عن آمالها في توسيع نطاق العمل بالمحل، وفي تجديده واكتساب العملاء القدامى مع المزيد من العملاء الجدد، ومع هذا فقد تركت كليمانس العمل معها في منتصف الصيف، وكان عليها أن تنتظر شهورًا حتى تظفر بأجرها المتأخر. وفي خلال هذه الأزمة الطاحنة، كان لانتيير وكوبيو ينعمان بأسعد أوقاتهما.. يشربان حتى يفقدا الوعي، ويأكلان حتى تمتلئ بطونهما، وحتى يصبح الواحد منهما عاجزًا عن النهوض من مقعده لفرط ما أكل وشرب.

وكان أهم موضوع للأحاديث الدائرة بين الجيران، هو التساؤل عما إذا كانت العلاقة الغرامية بين لانتيير وجرفيز قد عادت إلى ما كانت عليه أم لا. واختلفت آراء الجيران في هذا الشأن.. قال لوريليو، الأعداء الألداء، يؤكدون أن "العرجاء" بذلت كل جهد ممكن لتعود الى أحضان عشيقها السابق مع الاحتفاظ بزوجها، لكن لانتيير يأبى أن يتجاوب معها بعد أن نفدت جاذبيتها، وأنه يفضل الجري وراء الغانيات الأكثر جمالًا وشبابًا. أما

آل بوش، فكان رأيهم أن جرفيز تلقي بنفسها بين أحضان عشيقها بمجرد أن يبدأ زوجها في الغطيط! ولكن هذا كله كان قليل الأهمية بجانب موقف الجيران باعتبار أن حياة الثلاثة معًا، مسألة طبيعية لا تحتاج إلى استنكار أو تدخل.. ماذا لو أن جرفيز تعاشر رجلين، أحدهما الزوج، والآخر العشيق، ما دام الجميع يعيشون في وئام ووفاق؟! بل أليس هذا – في رأيهم – أفضل وأرقى من زوجين يعيشان في نزاع وخلاف وضجيج كل ساعة في اليوم؟ ثم.. أليس في كل أسرة من المخازي والمساوئ ما ينضج له الجبين خجلًا لو أن أحدًا يكتشف أسرارها، فلماذا إذن يلام آل كوبيو والعشيق على شيء يكاد يحدث مثله في كل مكان. يكفي أن المرأة ورجليها يأكلون معًا، ويشربون معًا، وينامون معًا، دون أن يزعجوا الجيران بالصياح والمشاجرات والضجيج. وأكثر من هذا فان لانتيير يجامل كل إنسان، ويداعب كل طفل، ويؤدي أية خدمة في مقدوره أن يؤديها لكل من يطلبها منه. وحتى لو أراد الفاكهي أن ينفي وجود كل علاقة آثمة بين جرفيز ولانتيير أمام الخضري، فإن الخضري يهز رأسه أسفًا، لأن عدم وجود هذه العلاقة يحرم الجيران من موضوع شيق يتحدثون فيه!

وفي خلال هذا كله كانت جرفيز تعيش في سلام وهدوء مع نفسها. بل لقد بلغ بها الحال حدًّا جعل الناس يتهمونها بأنها امرأة بلا قلب. ففي محيط الأسرة، كان الجميع لا يفهمون سر نفورها الجنسي من لانتيير.. فأخت زوجها مدام ليرات، تأتي كل مساء وتقول لها إن لانتيير شاب جذاب تتمنى كل امرأة أن تعيش بين ذراعيه. ومدام بوش تؤكد لها أنها تتمنى لو كانت أصغر عشر سنوات لتتخذ من لانتيير عشيقًا لها. ولاح لجرفيز أن هناك

مؤامرة خفية تقودها فرجيني، لدفعها إلى أحضان لانتيير مرة أخرى. ولكن جرفيز لا تفهم سر هذا الاهتمام كله بلانتيير.. إنه في نظرها قد فقد كل جاذبية تغريها بالعودة الى ذراعيه. حقًّا لقد تغير كثيرًا في الظاهر.. فهو يبدو دائمًا أنيقًا، مهذبًا، مجاملًا.. ولكنها كانت الوحيدة التي تنفذ إلى أعماق نفسه عن طريق عينيه، وكان ما تراه في هذه الأعماق يرسل الرعدة في جسدها. وإذا كان لانتيير جذابًا إلى هذا الحد، فلماذا لا يعشقنه هن؟ هكذا قالت لمدام ليرات، ولفرجيني. ولكن الاثنتين قالتا لها – لإثارة غيرتها – أن لانتيير أصبح على علاقة حب دائمة مع كليمانس، العاملة السابقة في محلها. وإذا أرادت أن تتأكد بنفسها، فما عليها إلا أن تزور كليمانس في غرفتها في أية ساعة من ساعات النهار. وهنا كانت جرفيز تقول بصوت حاولت أن تجعله طبيعيًّا:

– وماذا يهمني في هذا كله؟

ثم تنظر بإمعان الى عيني فرجيني الشبيهتين بعيني قطة، وتضطرب فرجيني، وتقول وهي تصطنع عدم المبالاة:

– طبعًا.. طبعًا.. إن هذا لا يهمك في شيء.. ولكننا نقول لك هذا حتى تنصحيه بترك هذه الفتاة وشأنها، وإلا أوقع بها في مشكلات لا نهاية لها.

ولكن أسوأ شيء في هذا كله أن لانتيير بدأ يستمد الجرأة من هذا الموقف، فراح يغير سلوكه نحو جرفيز. فكان إذا صافحها، استبقى يدها في يده برهة، وكان ينظر إليها نظرات طويلة مشحونة بالمعنى الواضح بما يريده

منها. وإذا مر بجانبها، ضغط بركبتيه على ظهرها، وأرسل أنفاسه على عنقها كأنما يريد أن ينومها ويسلبها كل إرادة للمقاومة. وأخيرًا انفرد بها ذات مساء في المحل، فراح يدفعها إلى ركن منه، بعيدا عن النافذة، محاولًا أن يغتصب منها قبلة.

وفي تلك اللحظة دخل كوجيت، وكانت جرفيز قد تخلصت من لانتيير، وتبادلت معه كلمات عادية كأن شيئًا لم يحدث. ولكن وجه كوجيت كان شاحبًا، وقد حسب أنه دخل في وقت غير مناسب، وأفسد على العشيقين متعتهما.

الفصل العاشر

وفي اليوم التالي كانت جرفيز تشعر بقلق مرير وهي تتحرك داخل المحل.. وقد اشتد قلقها إلى حد أنها عجزت عن كي منديل صغير. كانت تهفو إلى مقابلة كوجيت بأي ثمن لتشرح له أن لانتيير هو الذي أراد أن يقبلها رغمًا عنها. ولكن كيف تذهب لمقابلته في المصنع؟ لقد كانت تذهب إليه متظاهرة بالرغبة في رؤية ابنها العامل معه. ولكن اتيين كان قد رحل إلى مدينة ليل ليتدرب على إدارة الآلات الحديثة. فكيف تذهب إليه، وماذا تقول له، وما هي الأفكار التي ستراود زملاءه في المصنع حينما يرونها ذاهبة لزيارته؟

وفي نفس اليوم بعد الظهر، لم تستطع أن تكبح جماح رغبتها، فحملت سلة وذهبت إليه متظاهرة بشراء كمية من البطاطس من محل خاص بشارع بورث بلانش. ولما وصلت إلى شارع ماركاديت الذي يقع فيه المصنع، سارت متمهلة آملة أن يلمحها كوجيت فيسرع للقائها.

وحالفها حسن الحظ.. أو لعل كوجيت كان – بدوره – ينتظر رؤيتها في أية لحظة، فما كادت تقترب من باب المصنع حتى رأته مسرعًا نحوها، متهلل الوجه، يقول لها كأنما يراها مصادفة:

– آه.. هل أنت في طريقك إلى البيت بعد جولة للتريض؟!

قال هذه الكلمات لأنه لم يجد كلمات أخرى يقولها. وسارت جرفيز معه في اتجاه مونمارتر، جنبًا الى جنب، دون أن يتبادلا حديثًا أو يتماسكا بالأيدي. كانا يريدان فقط أن يبتعدا عن المصنع بقدر الإمكان حتى لا يظن أحد أنهما

التقيا على موعد، وبعد مسافة مائتي ياردة تقريبًا انعطفا معًا، وبحركة تلقائية، نحو اليسار، وكأنهما يعرفان البقعة التي يجب أن يذهبا إليها في ذلك اليوم. وكانت تلك البقعة منطقة زراعية خضراء تقع بين مصنع للخشب، وآخر للزراير، وهناك كانت ثمة شجرة صغيرة بجوار جدول ماء، وتحت الشجرة كان ثمة جدي صغير يرعى بعض العشب.

وتمتمت جرفيز في ابتهاج:

– عجبًا.. إننا هنا كأننا في الريف..

وجلست جرفيز بجواره، والسلة عند قدميها، وأمامها من بعيد، ترتفع أبراج الكنائس وأسطح المنازل في حي مونمارتر. ومن فوقها، حين تستريح بظهرها الى الشجرة، كانت ترى السماء صافية، تسبح فيها، في الأفق الشمالي، بعض السحب الخفيفة المتقطعة.

وقالت جرفيز وهي تشعر بالارتباك للصمت المخيم عليهما:

– نعم.. كنت مارة أمام المصنع في طريقي إلى...

ولكنها توقفت ولم تدر ماذا ينبغي أن تقول.. كانت تريد أن تشرح له موقف اليوم السابق، ولكنها لم تدر كيف تبدأ الحديث في موضوع دقيق كهذا. وأخيرًا قررت أن تتحدث في موضوع آخر، على أمل أن يتحول الحديث إلى الاتجاه المنشود. ومن ثم راحت تحدثه، والدموع في عينيها، عن موت مدام بيجارو، جارتها في البيت، قائلة:

– تصور أن زوجها العربيد تحول الآن إلى تعذيب ابنته الكبرى التي لا

تزيد في العمر على ثمانية أعوام؟ إنها في هذه السن تتصرف كأم حانية مع أختيها الصغيرتين.. إنها ترتب الغرفة وتنظفها وتغسل ملابسهما، وتعد لهما الطعام، فإذا جاء أبوها العربيد مخمورًا، انهال عليها بالضرب حتى يدمى جسدها الصغير.. وتتحمل المسكينة قسوة أبيها دون أن تشكو لأحد حتى لا تغضبه!

ومسحت جرفيز دمعة انحدرت من عينيها، ثم أردفت قائلة:

– أمس فقط رأيتها مربوطة الى عمود السرير.. لقد قيدها ذلك الوحش في العمود منذ الصباح إلى المساء، ومع ذلك ترعى أختيها الصغيرتين وهي مقيدة، وتطلب منهما أن يفعلا هذا أو ذاك تحت إشرافها.. ولما أردت أن أفك رباطها، أبت مستعطفة وقالت إنها تخشى أن يغضب أبوها إذا عرف أن أحدًا دخل الغرفة وأطلق سراحها..

ومرة أخرى مسحت جرفيز دموعها ثم أردفت قائلة:

– إنني كلما رأيت قوة احتمال هذه الصغيرة، ومبلغ حبها لأبيها رغم قسوته، أحسست أنني إنسانة تافهة بجانبها.. يبدو أن لبعض الناس قدرة خاصة على احتمال الألم.

وقال كوجيت متحدثًا لأول مرة وهو يعبث بعود نباتي صغير بين أصابعه.

– لا أظن أن هناك إنسانًا تألم كما تألمت أنا أمس.. إنني لا أستطيع أن أصف لك مبلغ ألمي.

وشحب وجه جرفيز، وتقلصت عضلات يديها، وعجزت عن التلفظ بكلمة. واستطرد هو يقول:

–كنت أعرف عن يقين أن هذا ما سوف يحدث بينكما. ولكنني كنت أرجو فقط أن تثقي بي وأن تصارحيني بالحقيقة حتى لا أظل مخدوعاً في...

ولم يستطع أن يستكمل حديثه.. ووثبت هي واقفة وقد أدركت أنه يظن –كبقية الجيران – أنها عادت الى أحضان لانتيير. ومن ثم بسطت يديها وهتفت بحرارة:

– لا.. لا.. أقسم لك أن شيئًا من هذا لم يحدث. لقد دفعني إلى ركن المحل، وكان يريد أن يقبلني، ولكنه لم يستطع.. إن وجهه لم يلمس وجهي. وكانت تلك أول محاولة له بعد عودته. أقسم لك على هذا بحياتي، وبأبنائي وبكل شيء مقدس.

ولكن الحداد الشاب هز رأسه في ارتياب. إنه لا يستطيع أن يثق بها.. إن النساء عادة ينكرن كل شيء. وعندئذ قالت جرفيز ببطء وبلهجة جادة تمامًا:

– إنك تعرفني يا مسيو كوجيت.. وتعرف إنني لا أكذب.. وأقسم لك بشرفي أنني لست على علاقة جنسية من أي نوع مع بلانتيير. ولن تقوم بيني وبينه مثل هذه العلاقة أبدًا. وإذا حدث هذا يومًا، فلن أكون جديرة بصداقة إنسان شريف مثلك.

وكانت لهجتها، ونبرات صوتها، ونظرات عينيها، تنم كلها عن صدقها. وانبهر كوجيت، وتراقص قلبه، وكانت تلك أول مرة يمسك فيها يدها.. وقد

ظل ممسكًا بها، بعد أن جلست مرة أخرى بجواره، وبقيا على هذا النحو فترة طويلة دون حديث. وأخذا ينظران إلى الأفق البعيد، وإلى تلال مونمارتر بأبراجها ومنازلها ومداخنها..

وقالت جرفيز في النهاية:

– إن أمك لم تعد تحبني. لا تنكر.. إن لها الحق.. فقد أصبحنا مدينين لكما بمبالغ طائلة.

ولكنه وقفها عن الاستطراد بالضغط على يدها حتى آلمها. إنه لا يريد أن يسمعها تتحدث عن المال. وأخيرًا قال:

– انصتي إلي. إنني أريد أن أقول لك شيئًا منذ مدة طويلة، إنك لست سعيدة في حياتك.. لقد أخبرتني أمي أن الأمور تتحول من سيئ إلى أسوأ في حياتك!

وتوقف عن الحديث برهة قبل أن يستطرد قائلًا بصوت مختنق:

– ولهذا يجب علينا أن نرحل معًا..

ونظرت إليه برهة دون أن تفهم شيئًا.. لقد أدهشها بحديثه المفاجئ عن حبه لها.. هذا الحب الذي لم يعبر عنه من قبل بكلمة واحدة.

وقالت له متسائلة:

– ماذا تعني؟!

فاستطرد يقول وهو يطرق برأسه إلى الأرض.

– نعم.. يجب أن نرحل معًا إلى أي بلد آخر.. إلى بلجيكا إذا أردت.. إن بلجيكا تكاد تكون وطنًا ثانيًا لي.. ويمكننا هناك أن نعمل معًا وأن نسعد بالحياة معًا..

واحمر وجهه وتوقف عن الحديث. ولو أنه عانقها في تلك اللحظة، لما دهشت أكثر من دهشتها لما سمعت! إن العمال حولهما في كل مكان يعرضون غرامهم على النساء والبنات.. وإن العلاقات الجنسية تنتشر بينهم ببساطة كأنه الشيء الطبيعي. ولكن لم يحاول واحد منهم أن يهرب بحبيبته أو بعشيقته كما يفعل "بنات الذوات" المترفون! ولم يسعها إلا أن تغمغم قائلة:

– كوجيت.. كوجيت:

ولم تجد ما تقوله أكثر من هذا. واستطرد هو يقول:

– هلم نرحل الآن.. لنترك كل شيء وراءنا.. لنذهب بعيدًا عن الناس وأحقادهم. إنني حين أحب إنسانة، يؤلمني أن أراها مع الغير.

وجمعت نفسها أخيرًا، ورفضت قائلة بأسلوب منطقي:

– إن هذا مستحيل يا كوجيت. إن هذا خطأ كبير. ألا ترى ذلك؟ إنني زوجة وأم. وأنا أعرف تمامًا مدى اهتمامك بأمري.

وأعرف أنني لا أقدم لك سوى الألم. ولكننا لو استجبنا لنزواتنا، فلن نجني إلا الندم والحسرة. إن أمرك يهمني أيضًا. بل يهمني إلى حد أنني أكره أن أراك ترتكب حماقة تندم عليها، لأن هربنا على هذا النحو يعتبر حماقة

كبرى. إننا الآن نتبادل الاحترام، والحب النبيل.. ولكن إذا طاوعنا رغباتنا فسوف يتحول احترامنا المتبادل إلى ازدراء، وحبنا السامي إلى كراهية.

وأومأ برأسه وهو منصت إليها.. وبدا عليه أنه متفق معها في كل كلمة قالتها، وفجأة تناولها بين ذراعيه في ضوء النهار الساطع، وضمها إلى صدره بقوة جنونية، وأطبق على فمها بفمه في قبلة طويلة.. طويلة تركتهما لاهثين بضع لحظات.. وأطلقها من يديه بعد ذلك.. إنه لم يكن يريد منها أكثر من هذا. وإنه لن يعرب لها عن حبه بأكثر مما فعل.. وانتفضت هي في ابتهال وانتشاء وقد شعرت أنهما – على الأقل – جديران بهذه اللحظة السعيدة.

واستدار كوجيت بظهره إليها حتى يكبح جماع رغبته العارمة في أخذها مرة أخرى بين ذراعيه. ثم انحنى على ركبتيه فوق العشب، وراح يشغل نفسه بجمع بعض الزهور البرية المختلفة الألوان، ثم صنع منها باقة جميلة، ووضعها في السلة.. وبعد ذلك أخذ يقتطف الزهور، الواحدة بعد الأخرى ويقذف بها إلى السلة، وهما يضحكان كطفلين سعيدين. وفي العودة، كانت السلة مليئة بالزهور البرية الذهبية والقرمزية.

* * *

ولكن جرفيز، في أعماق نفسها، كانت غير واثقة بقدرتها على الاستمرار في مقاومة لانتيير.. حقًّا لقد عقدت العزم على ألا تسمح له يومًا بلمسها.. مجرد لمس، ولكنها تخشى إذا هو لمسها، وإذا هو أخذها بين ذراعيه، أن تستسلم لضعفها الغريزي.. ضعفها الذي يدفعها إلى إرضاء الغير على حسابها، ومن ثم تعود إلى أحضانه.

ولكن لانتيير، من جانبه لم يكرر المحاولة. لقد انفرد بها أكثر من مرة بعد ذلك. ولكنه لم يفعل شيئًا.. وكان يبدو مشغولًا ببائعة الفاكهة.. امرأة في الخامسة والأربعين، ولكنها محتفظة بجمالها وشبابها. وقد حدثت جرفيز كوجيت بأمر بائعة الفاكهة هذه وعلاقاتها بلانتيير حتى تزيده يقينًا..

ولما عادت فرجيني ومدام ليرات إلى محاولاتهما لإعادة العلاقة بين جرفيز ولانتيير قالت لهما إنه يستطيع أن يستمتع بحياته مع النساء بدونها، لأن جميع النساء في الشارع يتسابقن إلى ذراعيه!

وكان كوبيو من ناحيته يعلن في كل مكان أن لانتيير شاب ممتاز.. وليقل الناس ما يقولون، فهو وحده الذي يعرف الحقيقة.. يعرف أن لانتيير يحافظ على شرفه كأي صديق أمين. وماذا يهمه من أقوال الناس ما دام يعرف أن الحق في جانبه. وكان إذا خرج ثلاثتهم في أيام الآحاد يصر على أن يجعل جرفيز تسير بجانب لانتيير مباشرة. واضعة ذراعها في ذراعه، بينما يسير هو في المقدمة، متلفتًا حوله كأنما يتحدى الجميع. وفي الوقت نفسه كان يسخر من لانتيير لأنه يحسن القراءة والكتابة، ويتحدث كالمحامين ولا يشرب حتى يفقد الوعي. وفيما عدا هذا كان يعتبره أحسن صديق.

ولم يكن لانتيير يتردد في استغلال هذه الصداقة لصالحه، فكان يقترض من جرفيز بضعة فرنكات بين الحين والآخر، مؤكدًا أنه سيرد الدين كله عندما يظفر بالعمل المناسب. وكان بهذه المبالغ، يمضي مع كوبيو، ويقضى معه النهار كله، أو جزءًا من الليل في الشراب.. وكان كوبيو يشرب حتى يفقد وعيه تمامًا، بينما يصر لانتيير على تمالك صوابه..

وفي خلال هذه الفترة كان كوبيو لا يعمل في الأسبوع إلا يومًا أو يومين، وقد ينصرم الشهر كله دون أن يعمل يومًا واحدًا.. وحتى إذا خرج ذات يوم حاملًا حقيبة أدوات العمل، فإنه لا يلبث أن يضع الحقيبة تحت مائدة إحدى الحانات عندما يلتقي ببعض أصدقائه المتعطلين، ومنهم لانتيير، ثم يمضي اليوم كله، متنقلًا معهم، من حانة إلى أخرى، ومن مطعم الى آخر، حتى يعود في ساعة متأخرة من الليل فاقد الوعي تمامًا..

وفي ليال كثيرة، عندما لا يكون لانتيير معه، يعود كوبيو إلى مسكنه محمولًا، من فرط السكر، على أيدي أصدقائه..

وفي ذات ليلة كان كوبيو قد وعد جرفيز بأن يصحبها إلى حفلة موسيقية في مسرح "الميوزيك هول". ولما تجاوزت الساعة الثانية دون أن يحضر، رأت لانتيير مقبلًا بكل أناقته، فسألته عن كوبيو فقال لها في غير اهتمام:

– لقد تركته في الساعة الخامسة مع بعض الأصدقاء في حانة البابليون.. وكان ينوى أن ينتقل معهم إلى حانة أخرى..

وضربت جرفيز الأرض بقدمها، وقالت وهي تقرض بأسنانها:

– هذا الحيوان العربيد!

وانتهى الأمر إلى أن صحب لانتيير جرفيز إلى قاعة الموسيقى، ولما انتهت الحفلة في الحادية عشرة مساءً، اتخذا طريقهما الى البيت. ولكنهما وقفا أمام البيت مدة طويلة يصلصلان الجرس على غير جدوى، وقال لانتيير في النهاية:

– يبدو أنهم جميعًا مستغرقون في النوم..

وأخيرًا فتحت مدام بوش لهما الباب، ودخلا، ثم أعطتهما – وهي نصف نائمة – مفتاح المسكن، وقالت لهما إن الشرطي بواسو أحضر كوبيو وهو في حالة يرثى لها من فرط السكر..

وما كادت جرفيز تفتح باب مسكنها الخاص، حتى تسمرت في مكانها مرتعدة بينما قال لانتيير وهو يضع يده على أنفه:

– يا للهول هذه الرائحة الكريهة.. إنها رائحة قاتلة..

وكان الضوء الخافت في الفناء ينساب من الباب المفتوح، ويلقي بعض الضوء على غرفة نوم جرفيز.. وكانت الغرفة والأثاثات والفراش كلها ملوثة بما أفرغه كوبيو من بطنه وأمعائه.. وكان هو راقدًا مخمورًا فاقد الوعي تمامًا في هذه المباءة الرهيبة التي كانت رائحتها تدير الرأس من فرط الاشمئزاز والتقزز..

ونظرت جرفيز إلى زوجها الراقد على هذا النحو، مفتوح الفم، تحرك أنفاسه المخمورة بعض السوائل القذرة المتراكمة حول رأسه، ثم قالت في فزع:

– هذا الحيوان.. هذا الحيوان! لقد أفسد كل شيء.. إن الكلب يأبى أن يفعل بنفسه هذا.

وشعرت أنها لن تستطيع أن تلمس هذا الحيوان المخمور ولو بملقاط، فكيف يمكنها أن تنام معه في غرفة واحدة!

وقالت كأنما تحدث نفسها:

– لو كان في إمكاني أن أنام في الشارع لفعلت. ولكن علي أن أبحث عن ركن نظيف لأرقد فيه حتى الصباح..

ثم تقدمت في حذر ونفور خطوة، وحاولت أن تخطو فوق كوبيو، واعتمدت بيدها على خزانة الأدراج حتى لا تنزلق في المباءة، ولكن كوبيو كان يسد الطريق أمامها الى الفراش. ومن ثم أمسك لانتيير الذي يضحك في نفسه بيدها، وهمس إليها قائلًا بصوت معسول:

– جرفيز.. أنصتي إلي.. جرفيز!

وأدركت ما يعنيه، فانتزعت يدها من يده، وتمنعت قائلة:

– لا لا.. يا أوجست.. هذا غير ممكن.. اذهب أنت إلى غرفتك ودعني وشأني.. لسوف أجد ركنًا أنام فيه حتى الصباح.

– جرفيز.. اسمعى.. لا تكوني حمقاء.. إن هذه الرائحة وحدها يمكن أن تسممك.. أن تخنقك.. ماذا تخشين؟ إنه لا يسمعنا..

ولكنها أبت، وهزت رأسها بعنف، وفي ثورة ارتباكها، أو لعلها أرادت أن تؤكد له أنها لن تنام خارج غرفتها، خلعت معطفها وقذفت به فوق خزانة الأدراج، ثم ثوبها، ووقفت بقميصها الداخلي الذي كشف عن جسدها الممتلئ المشحون بالجاذبية الجنسية.. وحاولت مرتين أن تصل إلى سريرها، ولكنها في كل مرة كانت تتراجع حتى لا تتلوث قدمها بالأقذار الرهيبة المحيطة بالزوج المخمور.. وكان لانتيير من جانبه يعرقل محاولاتها، فيمسكها من

خصرها، ويهمس لها بغرامه المضطرم، وبرغبته العارمة للعودة إليها، مؤكدًا لها أنه لم يحب امرأة طيلة هذه السنوات كما يحبها.. وتمادى في همساته التي جعلت دماءها تغلي بالعاطفة، ولم تلبث أن وجدت نفسها بين زوج أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان، وبين رجل تافه يعرف كيف يستغل الظروف لمصلحته. ولما رفع لانتيير طبقة صوته قليلًا، طلبت منه أن يصمت، ثم أرهفت السمع الى الغرفة الأخرى التي تنام فيها نانا – ابنة العاشرة من العمر – والجدة العجوز مدام كوبيو. ولاح لها أنهما مستغرقان في النوم وهي تسمع أنفاسهما الرتيبة العالية الصوت..

وقالت للانتيير في يأس:

– أرجوك.. دعني وشأني يا أوجست.. دعني وإلا استيقظت ابنتي نانا.. كن عاقلًا.. لسوف أستجيب لك في مكان آخر.. وفي وقت آخر.. لا تنس أن ابنتي الطفلة نائمة هنا..

ولم يقل شيئًا، ولكنه ابتسم ثم ترك أذنها، وقبل عنقها قبلة طويلة حارة شعرت على أثرها بقواها تتخاذل. وسرت في جسدها رعدة عارمة.. وحاولت مع هذا أن تتقدم إلى سريرها، ولكنها لم تلبث أن تراجعت، لأن دخول الغرفة والنوم فيها من المستحيلات.

إن إحساسها بالاشمئزاز والتقزز كان أقوى منها، وأن الرائحة الكريهة سوف تسممها ولا شك إذا مضت ليلتها في تلك الغرفة، وأن زوجها فاقد الوعي الى حد عدم الاهتمام أو الشعور لو أن رجال الشارع كلهم جاءوا ليقضوا الليلة مع زوجته..

وتمتمت أخيرًا في يأس تام:

– ليكن ما يريد إذن. إنه المسئول.. يا إلهي.. إنه هو الذي يحرمني من فراشي النظيف. لم يعد لي فراش أنام عليه، ليكن هو المسئول عن كل شيء..

وارتعدت، وأحست أنها لا تدري على وجه التحديد ما هي فاعلة، وفيما كان لانتيير يدفعها إلى غرفته الخاصة، كان وجه الطفلة نانا يبدو من وراء زجاج الباب الفاصل بين غرفتها وغرفة والديها. وكانت قد استيقظت لتوها، ونهضت من فراشها شاحبة خائفة، وأطلت من وراء الزجاج فرأت أباها في مباءته، ورأت أمها بقميص النوم، وهي تختفي مع الرجل الآخر، في الغرفة الأخرى، وظلت واقفة برهة. يطل من عينيها الفضول الجنسي!

الفصل الحادي عشر

في ذلك الشتاء اشتد المرض بمدام كوبيو فلازمت الفراش لبضعة أسابيع. ورغم تناوب جرفيز وابنتيها في رعايتها، فقد أخذت طباعها تسوء، وصارت ضيقة الصدر متوترة الأعصاب لأتفه الأسباب. ولم تكن تتردد في اغتياب جرفيز إلى ابنتيها مدام لوريليو ومدام ليرات، واغتيابهما أمام جرفيز. وفي ذات ليلة، بعد مشادة حامية بينها وبين جرفيز أثناء النهار، قالت هامسة لابنتيها الجالستين بجوارها في غرفة نومها:

– كيف تجرؤ هذه العرجاء على إهانتي؟ ألا تعرف أنني رأيتها ذات ليلة منذ أسبوعين وهي تدخل مع عشيقها السابق لانتيير إلى غرفته؟!

ثم راحت تحدثهما بما سمعت في تلك الليلة كلمة كلمة أثناء تظاهرها بالنوم. وأخذت تسرد تفاصيل ما وصل إلى أذنيها خلال الباب الفاصل بين الغرفتين، غرفتها وغرفة لانتيير، وحتى ساعة متأخرة من الليل.. وربما إلى الصباح، لأنها، رغم مقاومتها للنوم، لم تلبث أن استسلمت له..

واستطردت تقول:

– وأسوأ من هذا كله أن نانا سمعت كل شيء أيضًا. وكانت طوال الليل تتقلب في فراشها رغم اعتيادها على الاستغراق في النوم.

ولم ترتسم الدهشة على وجهي الابنتين، وإنما قالت مدام لوريليو:

– لا شك أن هذه العلاقة بدأت منذ اليوم الأول من إقامته معها في مسكن واحد..

ثم أردفت قائلة:

– وإذا كان كوبيو راضيًا عن هذا الوضع، فإن شرف الأسرة لا يقبله..

وقالت مدام ليرات وهي تلوي شفتيها:

– لو أنني رأيت ما حدث لأصدرت صوتًا أو حركة تفزعهما.. بل ما كنت أتردد في أن أفاجئهما.. لقد أخبرتني خادمة طبيب أن عشيقين فوجئا وهما في هذه الحالة فأصيبا بالشلل فورًا.

وسرعان ما عرف الجيران جميعًا في الشارع، والشوارع المجاورة أن لانتيير يقضي معظم لياليه مع جرفيز.. وكانت مدام لوريليو تعرب عن استنكارها الشديد لهذا الوضع، وتتهم أخاها بالضعف والتخاذل والجبن. واجتمعت كلمة الجيران على أن جرفيز هي المسئولة عن كل هذا، فهي التي أغرت الشاب المهذب لانتيير بالعودة إليها، وهي التي تشجع زوجها على شرب الخمر كل ليلة إلى حد السكر ليخلو لها الجو مع عشيقها. وفي الوقت نفسه، حافظ على حب الجيران له، وظل يقدم للنساء الحلوى والزهور، ويجامل الرجال بالعبارات الرقيقة وكئوس الخمر، ومن ثم أخذ الجميع يعتذرون عنه.. إنه رجل، وماذا يستطيع الرجل أن يفعل إزاء امرأة لا تكف عن الجري وراءه، لقد أصبحت ولا شك وصمة عار في جبين شارع لاكوت دور..

وفي خلال هذا كله، كانت جرفيز تمضي في طريقها المنحدر.. وكانت في أول الأمر تمضي في تخاذل واستسلام وتشعر أنها امرأة شريرة مذنبة لا

تعرف معنى الحياة، ومن حقها أن تشمئز من نفسها، وكانت كلما خرجت من غرفة لانتيير أسرعت وغسلت يديها وعنقها وكتفيها، وكأنما تريد أن تركل كل أثار قبلاته عن بشرتها، وإذا حاول كوبيو أن يقبلها أو يغازلها أو ينال حقه منها كزوج، في نفس الليلة التي سلمت فيها نفسها لانتيير، ثارت وتمردت، وأبت أن تستجيب له في إصرار كامل. وكذلك كان موقفها مع لانتيير، إذا كان كوبيو قد نال حقه منها كزوج..

كانت في أول الأمر تفضل أن تموت على أن تلقي بنفسها بين أحضان رجلين في ليلة واحدة.. ولكنها لم تلبث – تدريجيًّا – أن استسلمت للأمر الواقع. وأصبحت تعاشر الرجلين كأن العلاقة بينها وبينهما أمر طبيعي لا يستحق عناء التفكير أو الشعور بالألم. لقد تعبت من كثرة المقاومة، وكان ميلها الغريزي إلى الراحة والتماس البهجة من أقصر طريق، قد جعلها تأخذ الأمر على علاقة دون عناء التفكير في الأسباب والمسببات. إن كل همها أن تعيش راضية لا تؤذي أحدًا، ولا تسمح لأحد أن يؤذيها.. وطالما أن زوجها وعشيقها راضيان، قانعان بهذا اللون من الحياة، فلماذا تحمل هي الهم عنهما؟! وعلى هذا النحو أصبح مسلكها الشائن عادة تمارسها بلا تفكير أو شعور بالذنب. فكانت تقضي كل ليلة يأتي فيها كوبيو مخمورًا فاقد الوعي، مع لانتيير في غرفته الخاصة. وكان هذا يحدث دائمًا في أيام الاثنين والأربعاء والجمعة من كل أسبوع. بل أمست في الأيام الأخرى تترك فراش زوجها عندما يشتد غطيطه، وتستكمل الليلة في فراش لانتيير. ولم يكن يدفعها الى هذا حب للانتيير، وإنما لأنها كانت تجده أنظف، وأحسن رائحة من زوجها العربيد. وعلى الجملة كانت مثل القطط، تبحث عن المكان النظيف المريح لترقد فيه..

وفي ذات يوم، بعد مشادة عنيفة وبين مداد كوبيو لم تستطع العجوز أن تستمر في كتمان السر، فصارحتها بما تعرفه عن علاقتها بلانتيير، وهنا انفجرت جرفيز معترفة بهذه العلاقة، وصاحت قائلة إنها ليست أسوأ من غيرها.. بل ليست أسوأ من مدام كوبيو في شبابها، فإن الجميع لا يزالون يتحدثون عن مغامراتها مع الرجال، وأن أية امرأة في المنطقة لا تستطيع أن ترفع عينيها في وجهها، لأنها تعرف عنها ما يندى له الجبين خجلًا.. وإذا كانت هي على علاقة برجل واحد غير زوجها، فإن لكل امرأة في المنطقة عشاقًا بعدد الأيام والليالي في أعمارهن. ثم لوحت بيدها نحو النافذة وقالت:

– إن المنطقة كلها تعيش في حمأة من الجنس.. إن الرجال والنساء والآباء والأبناء والبنات يعيشون كالحيوانات.. فيتمرغون في الوحل.. ليس فيهم رجل واحد نظيف أو امرأة واحدة شريفة.. إنني أعرف كل شيء.. إن رائحة الجنس تفوح من كل بيت.. إن الفقر يكوم الرجال على النساء في استهتار رهيب. ولو أنك صنعت منهم جميعًا.. من هؤلاء الرجال والنساء، خليطًا لحصلت على كمية هائلة من الروث تكفى لتغطية شوارع باريس كلها!

وبعد أن تنهدت قليلًا، أردفت قائلة:

–ويحسن أن تتركي كل إنسان وشأنه. ولا تنسي أنك الآن شريفة رغم أنفك.. ولو عاد إليك صباك وجمالك لكنت سابقتنا في هذا المضمار.

وشحب وجه المرأة العجوز ولم تجب بشيء. ولكنها انتهزت فرصة حضور كوجيت في اليوم التالي، أثناء غيبة جرفيز عن المحل، فاستدعته إلى

الجلوس على مقعد بجوار الفراش، ثم تحدثت معه طويلًا. وكانت تعرف نوع الحب القدسي الذي يحمله الشاب لجرفيز، والذي كان يدفعه إلى بذل كل معونة لها كلما ارتبكت أحوالها المالية.

ولما نهض الشاب لينصرف، كان يترنح ويعتمد على الجدران في سيره لفرط ما كان يخامره من الحزن والاستياء وخيبة الرجاء. وما إن عادت جرفيز من الخارج، حتى قالت لها حماتها العجوز إن مدام كوجيت تريد أن تسرعي إليها بالملابس الخاصة بها سواء تم غسيلها وكيها أم لا..

ودست جرفيز ملابس مدام كوجيت وابنها في السلة وهي شاحبة الوجه مكتئبة السمات، تشعر في أعماق نفسها بالخجل والحرج، لقد بلغت الديون التي عليها لهما أكثر من أربعمائة وخمسين فرنكًا بعد أن توقفت عن التسديد تمامًا. وكانت لا تزال تعيش ليومها فقط، وعلى نفس المستوى من الحصول على كل شيء بالدين. وكان أثقل شيء عليها زيارتها الأسبوعية لمدام كوجيت التي لم تكن تتردد في تقريعها ولومها وتوجيه كل عبارات التنديد بتصرفاتها إليها. وفي هذه المرة اشتدت حملة مدام كوجيت عليها إلى حد جعل الدموع تطفر إلى عيني جرفيز. وقد قالت لها مدام كوجيت في معرض اللوم:

– أترين! لقد أصبحت مهملة حتى في عملك الذي ترتزقين منه. لقد تركتك العاملات جميعًا كما تتهرب الجرذان من السفينة الغارقة.. وأصبحت الآن لا تفرقين بين ملابس العملاء. فها أنت تأتين إلى بملابس وعملاء غيري بين ملابسي.. ولا شك أن هذا يحدث مع كل عميل، فلا عجب أن تتدهور أحوالك المالية.. ولولا ابني لاتخذت الإجراءات اللازمة لإعلان إفلاسك..

وفي تلك اللحظة سمعت جرفيز من الغرفة الأخرى الخاصة بكوجيت، صوته وهو يقول في تعب وإرهاق:

– أماه.. كفى هذا يا أماه..

وامتقع وجه جرفيز، وتمتمت قائلة:

– هل المسيو كوجيت هنا؟ ماذا به.. أهو مريض؟!

– نعم مريض.. مريض بعد أن عرف إلى أي حد يمكن أن تتمرغ المرأة في الوحل.. إلى أي حد يمكن أن تتآمر مع زوجها وعشيقها لاستغلال طيبة قلب شاب مثله على الاستيلاء على أمواله..

وهنا صاح كوجيت بصوت أكثر ارتفاعًا وحدة:

– أماه.. أماه.. أرجوك..

وأسرعت جرفيز الى غرفة كوجيت فوجدته راقدًا على وجهه فوق الفراش وقد تمزقت الوسادة تمامًا وتطاير الريش منها. لا شك أنه كان يمزقها بيديه وأسنانه من فرط الانفعال والألم.ولما شعر بها في غرفته، همس لها قائلًا:

– لا تغضبي أو تحزني من حديث أمي. إنك لست مدينة لي بشيء.. وهذا كل ما أستطيع أن أقوله الآن.

فهمست جرفيز قائله في جزع:

– إنك لست على ما يرام يا مسيو كوجيت. ماذا بك؟

– لا شيء.. اطمئني. لقد أرهقت نفسي في العمل اليوم. لسوف أنام الآن.. انصرفي بسلام.

ولكنه لم يلبث أن هتف بعد أن عجز عن كتمان ما يصطرع في نفسه:

– يا إلهي.. يا إلهي.. ما كان ينبغي أن تفعلي هذا أبدًا.. لقد أقسمت لي بأنك لن تفعلي هذا.. ولكنك فعلته.. فعلته.. يا إلهي.. لشد ما جعلتني أتعذب..لماذا.. لماذا؟ أرجوك أن تنصرفي.. انصرفي..

وحنت جرفيز رأسها، وغادرت الغرفة في سكون. وكانت مدام كوجيت قد عادت إلى عملها في التطريز بالغرفة الأخرى، فلما رأتها قالت لها:

– انصرفي الآن يا مدام جرفيز، وأرسلي القطع الناقصة من ملابسنا، وسوف نسوي حساباتنا فيما بعد..

وغمغمت جرفيز بكلمات الموافقة، وانصرفت وهي تتمنى أن تبتلعها الأرض.

* * *

ولكنها لم تلبث أن عادت بعد أيام قليلة إلى طبيعتها.. إلى الرغبة الدائمة في الاستمتاع بيومها دون التفكير في غدها.. وما دامت تجد في اليوم ثلاث وجبات كاملة دسمة، وبضع كئوس من النبيذ، وفراشًا نظيفًا تقضي فيه الليل، سواء مع لانتيير أو مع كوبيو، فهو يوم سعيد في حياتها.. أما فيما عدا هذا فلا يهمها شيء.. لينتظر الدائنون حتى تتمكن من تسديد ديونها، وليذهب عملاؤها إلى الجحيم، فإنها أحوج ما تكون إلى الراحة منهم، ومن ملابسهم القذرة..

ومن الطبيعي عندما يدخل الفقر والكسل من الباب، تخرج النظافة من النافذة. وهكذا لم يلبث المحل والمسكن أن صارا مرتعا للقذارة والإهمال، ولم تكن جرفيز تفكر في تنظيفهما إلا إذا عجزت عن التجول فيهما أو إذا خشيت أن يعلق نسيج العنكبوت المتدلي من الأسقف بشعرها.. ومع هذا جرفيز هانئة في حياتها بعد أن تعودت عليها. وكانت تزداد امتلاء مع الكسل ووفرة الطعام، وتزداد تبلدًا كلما ازدادت أحوالها ارتباكًا. وقد بلغ بها الأمر أن صارت تهمل في ملابسها وفي نظافتها، فهي تسير بملابس داخلية مهلهلة، وبوجه لم تغسله، وتنام في فراش يزكم الأنوف برائحته، وكأنما أصبحت هذه الرائحة وهذه القذارة لونًا من المنحدر الذي يهدهد إحساساتها، ويبلد مشاعرها. وكذلك فقدت إحساسها بالأمانة والشرف. فهي لا تفكر في تسديد ما عليها من ديون، فإذا رفض أحد التجار التعاون معها، افتتحت حسابًا جاريًا مع تاجر آخر في شارع بعيد، وهكذا أصبحت مديونة لجميع تجار المنطقة، وصار لزامًا عليها أن تتسلل – عند الخروج من المسكن – حتى لا يراها أحد، أو يطالبها أحد بما عليها من ديون له.

وكان كوبيو بدوره يزدهر خلال هذا الانحدار الشديد في طريق الحياة، فكان يزداد بدانة على الخمر والطعام الكثير، وكان يتحسس بطنه التي تبدو كالطبلة بعد أكلة عارمة، ويقول إنه يحمل تميمة تقيه شر مضار الخمر والإسراف في الطعام. وكلما حدثته زوجته عن أحوالهما المرتبكة، ضحك ساخرًا، وقال إنه لا يهمه في هذه الحياة إلا أن يأكل حتى تمتلئ معدته، وإلا أن يشرب حتى يفقد الوعي، وما عليها هي إلا أن تدبر أمورها وأن توفر له حاجته من الطعام والشراب.

وكذلك كان الحال مع لانتيير.. كان يزدهر ولكنه كان يحرص على ألا يزداد وزنه.. وقد جعل حزامه مقياسًا لمحيط بطنه، فإذا وجد أنه ازداد سمنة، ولو بمقدار بسيط، ثار وغضب واتهم جرفيز بأنها تحاول أن تجعله يبدو بدينًا حتى يفقد جاذبيته للنساء. وإذا وجد أن وزنه نقص، ولو بمقدار قليل، ثار أيضًا واتهمها بأنها تحاول أن تقتله بسوء التغذية. وكان إذا رأى كوبيو ينهال عليها بالسباب والشتائم لأمر ما، اشترك معه، وكأنه – مثله – زوجها، ومن حقه أن ينهال عليها بنفس المقدار من الشتائم والسباب. وكانت في بادئ الأمر تثور على هذا الوضع، ولكن الإنسان – لحسن الحظ – يعتاد على كل شيء بمرور الزمن، وهكذا أخذ ظلم الاثنين لها ينزلق على نفسها انزلاق الماء على السطح المنحدر الأملس، بل جاء الوقت الذي كانت تفضلهما فيه وهما ثائران عليها، على إزعاجها برغباتهما الجنسية. وهكذا كان عليها أن ترضيهما، وأن تدللهما، وأن تلبي رغباتهما، وأن تتحمل قسوتهما، وتستجيب لنزواتهما، حتى إذا جاءت نهاية الأسبوع، شعرت برأسها يدور، وعظامها تنكسر، وعينيها شبه مخبولتي النظرات.

وعلى الجملة كان الاثنان يتباريان في استهلاكها، وكانت هي لا تعرف إن كان كوبيو يعلم بعلاقتها بلانتيير أم لا.. ولكن المؤكد أنه لم يشر يومًا إلى أنه يعلم بشيء من هذا حتى في أعنف ثوراته وهو مخمور. وماذا لو علم؟ ألم يفقد مثلها كل إحساس بالشرف؟ ألم يعد كل ما يهمه في الحياة أن يشرب حتى يسكر، وأن يملأ بطنه بالطعام، ثم يجرى وراء كل بغية تغمز بعينها!

وأخيرًا جاء اليوم – في شهر ديسمبر – الذي لم تجد فيه جرفيز كسره خبز في خزانة الطعام. ولما علم لانتيير بالأمر، تحول إلى فرجيني وزوجها،

وأصبح يتردد عليهما ويتناول معهما الطعام والشراب.. وبنفس الأسلوب الذي خدع به كوبيو، خدع الشرطي بواسو، وأصبح – من ورائه – شريكًا له في طعامه وفي زوجته، دون أن ينفصل – من ناحية المسكن – عن آل كوبيو.

وفي ذلك الشتاء، ماتت مدام كوبيو العجوز، واضطرت جرفيز أن تستدين مبلغًا آخر من كوجيت لتواري المرأة العجوز الثرى، فبعد أن رفضت ابنتاها أن تسهما بشيء في إجراءات دفنها. وبعد أن فرغ الجميع من مواراتها الثرى، قال كوبيو للذين عادوا معه من المدافن:

– أيها السادة والسيدات.. دعوني أقدم لكم بعض الشراب ثم تقدمهم إلى حانة شارع ماركديت. ولما حاول الشاب كوجيت الذي كان بين المشيعين، أن ينصرف، استبقته جرفيز وطلبت منه أن يشرب مع الجميع كأسًا من النبيذ. ولكنه اعتذر قائلًا إنه يريد العودة إلى عمله بالمصنع، ثم نظر كل منهما إلى الآخر طويلًا.. وأخيرًا قالت له جرفيز:

– إنني آسفة لإزعاجك بطلب هذا المبلغ الأخير لدفن مدام كوبيو لم أجد أحدًا ألجأ إليه في هذه المحنة غيرك.

فقاطعها الشاب قائلًا:

– لا عليك.. لا عليك.. أنت تعرفين أنني لا أبخل عليك بشيء وأنا دائمًا تحت أمرك في كل أزمة، ولكن أرجوك ألا تقولي شيئًا لأمي، لأنها ستزداد حزنًا لو علمت. وأنا لا أحب أن أحزنها.

ونظرت إليه برهة.. إلى وجهه الوسيم الممتلئ بالطيبة وحب الخير. وخطر

لها أن تقبل اقتراحه للرحيل معًا في تلك اللحظة. ولكن فكرة شريرة طرأت عليها فجأة، ورأت أن تستغل هذا الحب القوي الذي يحمله لها، وتطلب منه قيمة الإيجار المتأخر عليها للمالك، الذي هددها بالطرد إذا لم تدفع له مبلغ المائة فرنك في خلال أسبوع.

وقالت بصوت متهدج:

– إننا ما زلنا صديقين حميمين يا كوجيت.. أليس كذلك؟

فأومأ برأسه وقال:

– بلى.. سوف نبقى دائمًا صديقين حميمين.. ولكن يجب أن تدركي أن كل ما كان بيننا من حب قد انتهى.. انتهى إلى الأبد.

ثم استدار ومضى في طريقه بخطوات واسعة.

وظلت كلماته ترن في أذنيها كأجراس الكنائس معلنة الحداد، وفيما هي تلحق بزوجها وضيوفه في الحانة، كانت تردد لنفسها في حزن عميق:

– لقد انتهى كل شيء.. و إلى الأبد.

الفصل الثاني عشر

مرت خمسة أعوام بطيئة رهيبة، لم تدر جرفيز كيف عاشتها.. لقد باعت المحل، وأقامت في غرفة صغيرة بأعلى المنزل تطل على الفناء، وعادت تشتغل عاملة في محلات الغسيل والكي.. ولكنها كانت بسبب إهمالها وكسلها واستهتارها لا تلبث أن تطرد من العمل.. وبلغ بها الأمر أن أصبح كل همها أن تجد ثمن كسرة خبز وبعض الطعام لتقيم أودها.. وكانت ابنتها نانا قد التحقت بالعمل مع عمتها مدام ليرات في مشغل الزهور الصناعية. وكانت الفرنكات القليلة التي تحصل عليها كل أسبوع لا تكاد تكفي لإطعامها هي وأمها فضلًا عن حاجة أبيها الدائمة الى الشراب. وفي ذات يوم انهالت عليها أمها بالتقريع والسباب حين علمت أنها، أي نانا، اعتادت على مصاحبة الشبان والرجال في غير أوقات العمل، والجلوس معهم في المطاعم والحانات. ولما تكررت حملات الأم على ابنتها لهذا السبب، قالت لها الفتاة ثائرة ذات يوم:

– هذا يكفي يا أماه.. لا تتحدثي عن الرجال.. إنني أنصحك. إنك تفعلين ما تريدين، وأنا سأفعل ما أريد..

ثم تلفتت حولها في جوانب المسكن العاري:

– أم تريدين أن أموت هنا جوعًا؟!

وتمتمت جرفيز قائلة في ذهول:

– ما هذا الذي تقولينه يا نانا؟

– أقول الحقيقة.. إنني لم أشأ أن أصارحك بما أعرف، ولكن لقد آن الأوان لأقول لك إنني كثيرًا ما رأيتك تدخلين غرفة لانتيير ليلًا وأنت بقميص النوم.. عندما يكون أبي مستغرقًا في النوم. إنك لا تهتمين الآن بهذا كله.. ولكن غيرك يهتم، ولهذا فلا داعي لأن تلقي علي مواعظك.

وتحركت جرفيز في جوانب الغرفة كالطائر المذبوح، لا تدري ماذا تفعل أو تقول.. وانصرفت الفتاة، وصفقت الباب وراءها..ولم تعد بعد ذلك.

أما كوبيو فقد بدأ ينهار تدريجيًا تحت وطأة الخمر.. وفي ذات يوم سقط مريضًا بالتهاب رئوي. فلما حمل إلى المستشفى وعولج، راح يضرب رأسه في الجدران طالبًا الخمر. وحمله المسئولون إلى مصحة الأمراض العقلية حيث ظل ستة أشهر خرج بعدها، وهو يقسم ألا يذوق الخمر في حياته.. ولكنه لم يلبث بعد أيام أن عاد إلى الشراب تدريجيًا.. وسقط مرة أخرى فاقد العقل، وحمل إلى المصحة للعلاج! وهكذا انقسمت حياته إلى قسمين قسم لتغيبه داخل المصحة للعلاج، وقسم لتغيبه خارجها بين كئوس الخمر.

وكان طبيعيًا أن ينتهي به الأمر إلى أن يصبح أمثولة بين الناس.. لقد فقد وزنه، وأصبح أقرب ما يكون إلى الهيكل العظمى، يسير مرتعد الأطراف، أحمر الأنف، لا يهمه إلا أن يحصل على الخمر بكل وسيلة، وكان الذين يعرفون حقيقة عمره، يرتعدون إشفاقًا ولا يصدقون أنه في الأربعين فقط. ذلك لأنه كان يسير محني القامة، مرتعد الأطراف، هزيلًا، شاحبًا، مجعد الوجه، وكأنه في الثمانين من العمر. وحتى صوته، تغير وأصبح متحشرجًا

رهيبًا يخدش الآذان.ولم يكن يطلب لأدرانه هذه كلها غير دواء واحد.. هو المزيد من الخمر.

وكان طبيعيًّا أن يهجر لانتيير الأسرة تمامًا كما يفعل الجرذ مع السفينة الغارقة، واتخذ مكانه بين فرجيني وزوجها بواسو.. ولكن بواسو – رغم سذاجته وطيبة قلبه – لم يلبث أن اكتشف هذه العلاقة حين عاد ذات ليلة من نوبته قبل موعده.. ولم يتمالك الزوج المخدوع أعصابه فأطلق النار عليهما من غدارته. وبرأته من المحكمة حين ثبت لها بالدليل القاطع أنه أطلق النار عليهما هما في وضع يفقد أي زوج صوابه.

* * *

وازدادت سرعة الانطلاق في الطريق المنحدر، نحو الهاوية وأن جرفيز لا تكاد تذكر متى بدأت المرحلة الأخيرة في ذلك الطريق المظلم الطويل.. لعلها كانت يوم السبت التالي على استحقاق ايجار الشقة لربع السنة الأخير.. في اليوم الثاني أو الثالث عشر من شهر يناير. إن جرفيز لم تكن واثقة بالتاريخ بعد أن فقدت الإحساس بمرور الأيام، بل وبعد أن نسيت متى تناولت آخر وجبة طعام ساخنة شهية. آه.. يا لفظاعة ذلك النصف الأول من شهر يناير ذاك! إنها لم تظفر فيه إلا برغيف خبز زنته أربعة أرطال، ظلت تتبلغ به أسبوعًا كاملًا، كسرة بعد كسرة.. ثم التهمت بقايا الخبز المتحجرة من الأيام السابقة، وانتهى كل شيء يؤكل في الغرفة.. وانصرمت ست وثلاثون ساعة دون أن تذوق طعامًا.. والأسوأ من هذا أن الجو كان رهيبًا في برودته، والسماء مظلمة مثقلة بالغيوم الداكنة، وبالثلوج التي تأبى أن تتساقط. وليس

من شك في أن أقسى محنة يمكن أن تمر بالإنسان، هي محنة الجوع والبرد القارس حين يجتمعان معًا.

ولكن من يدرى.. لعل كوبيو أن يحضر معه شيئًا يؤكل هذه الليلة، لقد قال لها في الصباح إنه وجد عملًا.. إن كل شيء ممكن.. وإن جرفيز لا يسعها إلا أن تغالط نفسها وتوحي إليها أن في مقدور كوبيو أن يعمل ولو لمدة يوم واحد، وأن يحصل على بضعة فرنكات تقيهما غائلة الجوع يومًا أو يومين، أما هي، فإنها لم تجد – بعد تجاربها المريرة في العمل – مكانًا يمكنها فيه أن تعمل، ولو غسالة أو خادمة. ففي آخر مرة طردتها امرأة عجوز من بيتها لأنها لم تعد تصلح حتى لغسيل الأطباق ومسح البلاط، كما اتهمتها بأنها تسرق منها الطعام، لم يعد هناك أحد يقبلها.. لم يعد هناك صاحب عمل يرضى أن يعهد إليها بشيء، لقد فقدت كل مؤهلاتها للقيام بأي عمل ترتزق منه. وكانت في قرارة نفسها سعيدة بهذا الوضع بعد أن وصلت في منحدر الطريق إلى المرحلة التي تفضل فيها الموت على القيام بأي عمل مجهد.. حسنًا.. إذا أحضر كوبيو أجره في هذا اليوم، فسوف يجدان ما يأكلانه الليلة. ولما كان الوقت لا يزال عصرًا، فقد رقدت على الحشية الموجودة على أرضية الغرفة، وقررت أن تبقى هكذا حتى يعود كوبيو، لأن الرقاد هو الملاذ الوحيد من الجوع والبرد.

وكانت جرفيز تسمي الخرقة البالية التي تنام عليها حشية بحكم العادة، أما الحقيقة فإنها لم تكن غير خرقة محشوة بكمية قليلة من القش في ركن الغرفة. وكان السرير، بملحقاته، قد وجد الطريق، شيئًا فشيئًا، إلى تاجر "الربابيكيا" وكان هذا السرير، بما عليه، آخر شيء بقي لديها من الأثاث

التي باعتها – خلسة – لتأكل بثمنها، وكانت هي وكوبيو يبيعان الأثاثات القليلة المتبقية لديهما خلسة، وفي جنح الليل، حتى لا يشعر بهما البواب بوش ويخطر مالك البيت الذي كان يعتبر هذا الأثاث ضمانًا لإيجار الغرفة المتأخر.

وقد بدأت بيع السرير أولًا، بتناول حفنات بعد حفنات من نشارة الخشب المحشوة بها الحشية وبيعها نظير مبالغ زهيدة تكفي لشراء كمية صغيرة من البن لصنع القهوة أو رغيف خبز صغير، ولما فرغت نشارة الخشب باعت كيس الحشية الخارجي، ثم أعقبته بالوسائد.. وبقي السرير الحديدي. وفي ذات ليلة انتهزت مع زوجها فرصة انشغال بوش وزوجته بالاحتفال ببعض الضيوف، وفكا أجزاء السرير، وحملاه ليلًا إلى بائع "الربابيكيا" نظير عشرة فرنكات، وسعدا بهذا المبلغ ثلاثة أيام.

وظلت جرفيز راقدة على الحشية الحقيرة في ركن الغرفة، طاوية قدميها تحت ثوبها المهلهل لتحميمها بعض الشيء من لذعة البرد. وكانت وهي مكومة على نفسها هكذا، مفتوحة العينين، تستعرض في ذهنها مختلف الأفكار. لا.. لا.. من المستحيل أن يستمر الإنسان في حياته على هذا النحو.. بدون شيء يأكله، إنها الآن لا تشعر بالجوع الشديد، وإنما تحس فقط بثقل في معدتها، وبخواء في ذهنها، وليس من شك أنها لا يمكن أن تجد في أركان غرفتها الأربعة ما يسر الخاطر.. إنها أحقر من رجاء كلب.. بل إن الكلاب المترفة التي تسير بجوار سادتها في الشارع الآن تأبى أن تنام في جحر كهذا وأن نظراتها الجوفاء لتتأمل الآن جدران الغرفة العارية، لم يعد هناك شيء يمكن أن يباع.. وحتى المدفأة، لم يعد فيها عود حطب واحد يمكن أن

يشتعل ويطرد بعض البرد عن جو الغرفة، نعم.. لقد باعت في سبيل الطعام والشراب، كل شيء حتى مشط الشعر الحديدي.. آه.. لو كانت تجد مشترين للقذارة والأتربة والقمامة، لافتتحت محلًا لبيع هذا كله مما تمتلئ به أركان غرفتها. إنها ترى في أركان السقف كممات كبيرة من نسيج العنكبوت، وهذه الأنسجة قد تكون نافعة للعنكبوت، ولكن ليس هناك من يقبل شراءها. وأخيرًا أشاحت بوجهها، وازدادت انكماشًا في نفسها، وراحت تنظر إلى السماء المكفهرة المثقلة بالغيوم والثلوج والبرد الذي ينفذ إلى العظام.

ما هذا القلق كله.. لماذا تجهد نفسها، وتملأ قلبها بكل هذا اليأس، آه لو استطاعت أن تغفو قليلًا! ولكن كيف تغفو وهي تتذكر أن صاحب الملك أرسل ينذرها بالطرد إذا لم تدفع الإيجار المتأخر ستة أشهر. حسنًا.. ليطردوها.. إن حياتها في الشوارع لن تكون أسوأ مما هي فيه الآن. ولكن.. أما كان الأجدر بصاحب البيت هذا أن يرسل إليها شيئًا قليلًا مما لديه.. بعض البقايا من مائدته، لتقتات به، بدلًا من أن يهددها بالطرد؟ عليه اللعنة. ثم أين ذلك الأحمق المأفون كوبيو؟ لماذا لم يحضر حتى الآن؟ لقد اعتاد أن يحضر عندما لا تريده، لكي ينهال عليها بالضرب والسباب.. أما الآن، وهي في أشد الحاجة إليه، فإنه يتأخر في الحضور.. عليه هو الآخر لعنة الأرض والسماء. وهي؟ ماذا كانت تفعل معه؟ إنها لم تكن بطبيعة الحال تستسلم لضرباته ساكتة.. وإنما كانت تعضه وتخمشه وتتصارع معه في أنحاء الغرفة حتى يتهالكا عاجزين عن كل حركة. ولكنها قد اعتادت على هذا كله الآن.. قد يغيب كوبيو أيامًا وأسابيع.. وقد يفقد عقله بالخمر أيامًا وأسابيع، وقد

يعيش كل ليلة مع امرأة أخرى، وقد يأتي كل ليلة ليضربها ويسبها.. إن هذا كله لم يعد له أي تأثير على نفسها بعد أن اعتادت عليه، أن كل ما تشعر به نحو هذا كله هو السأم والملل، هذا هو كل شيء.

وفي مثل هذه الأيام كانت تتمنى أن تراه في الجحيم.. هو وآل لوريليو، وآل بوش، وصاحب البيت، والجميع، إلى الجحيم كل الذين ينظرون إليها بنفور واحتقار. إلى الجحيم كل باريس.. وإنها لتخرج لسانها للدنيا كلها.

ولكن الإنسان – لسوء الحظ – قد يستطيع اعتياد كل شيء، إلا أن يعيش بلا طعام.. وكان هذا أسوأ ما يواجه جرفيز في حياتها، إنها على استعداد للاعتراف أمام الدنيا بأنها أحقر مخلوقة، وأنها أقذر من بالوعة المجاري، وأن من حق الناس أن يبتعدوا عنها حتى لا يلمسوها بأطراف أثوابهم عند مرورهم بالقرب منها، إن هذا كله لا يقتل أو يكسر عظامًا، ولكن الجوع هو الذي يقتل ويهشم كل ذرة في الجسم، إنها لم تعد تأمل في مجرد النظر إلى الأطباق الشهية.. بل إنها لم تعد تصدق أنها أقامت ذات يوم حفلة بمناسبة عيد ميلادها قدمت فيها كميات هائلة من الطعام والشراب لأربعة عشر مدعوًّا..! إن كل ما يهمها الآن أن تجد شيئًا، أي شيء، يمكن أن يؤكل.. كسرة خبز جافة، أو عظمة بها بقايا من تثار اللحم! لقد كانت أشهى وجبة لديها في الأسابيع الأخيرة أن تحصل على كمية من بقايا اللحم التي لا تباع من الجزارين، ثم تسلقها بحبات من البطاطس، ثم تلتهمها مع كرات من الخبز، وحتى هذه الوجبة لم تعد تجد السبيل إليها.. ولم تعد كذلك تستطيع الذهاب إلى الأبواب الخلفية في مطابخ المطاعم لتشتري كمية من مخلفات أطعمة الزبائن بأزهد مبلغ من المال. وأحيانًا كانت تتسول كسرات الخبز من هذه

المطاعم وتلتهما.. وأسوأ من هذا كانت تشترك مع الكلاب الضالة في نبش أكوام القمامة للبحث عن الكسرات وبقايا الطعام قبل أن يأتي جامعو القمامة ويحرموها من هذه المتعة، وبهذه الوسيلة كانت في بعض الأحيان تظفر بأطباق وفيرة من الليمون المعطن، والعظام المتعفنة والخبز المقدد، وبقايا السمك، نعم.. لقد وصل بها الأمر إلى هذا الحد. إن الإنسان قد يتقزز مما وصلت إليه، ولكن، ماذا يستطيع أي إنسان أن يفعل إذا عاش ثلاثة أيام بلا طعام؟ ألا تكون هذه الأشياء المتعفنة والمتعطنة وجبات شهية لمعدته المعذبة بالجوع! ألا يكون للإنسان العذر – أمام قسوة الجوع – إذا هو انحنى على يديه وقدميه وأكل من القمامة إذا وجد إليها سبيلًا؟! آه.. ما أقسى الجوع على الفقير ذوي المعدة الخاوية، هذا الجوع الذي يحوله إلى وحش يكشر عن أنيابه، ويملأ فمه بالألفاظ المفزعة، وهو يسير في شوارع باريس المتألقة بالذهب والترف! إن جرفيز لتذكر كيف كادت تقتل كوبية عندما خرج يومًا لشراء خبز، فأنفق المبلغ الزهيد على الخمر. لقد كادت تتحول إلى مجرمة قاتلة بسبب الجوع وقسوته.

وظلت جرفيز تحملق في السماء المكفهرة حتى غلبها على أمرها النوم المضطرب المليء بأحلام الخبز وأطايب الطعام. ولكن هذه الأحلام لم تلبث أن تحولت إلى كابوس، إذ حلمت أن العاصفة انفجرت، وانهمرت السماء بسيول جارفة أغرقتها.. فانتفضت فزعة من نومها وقد سرت في جسدها رعدة أليمة، يا إله السماء؟ هل تقرر أن تموت جائعة في النهاية! ونظرت مرة أخرى إلى السماء فوجدت أن النهار لم ينحسر بعد، يا لبطء مرور الوقت عندما لا يكون لدى الإنسان الجائع ما يأكله.. وأحست كأن معدتها قد

استيقظت أيضًا وشرعت تعذبها. وحنت رأسها وطمرته بين ركبتيها وجمعت يديها تحت ثوبها لتحميهما من البرد، وشرعت تفكر فيما سوف تأكله عندما يعود كوبيو بأجر عمله في ذلك اليوم، كمية من الخبز، وزجاجة نبيذ، وشريحة من لحم البقر، ودقت الساعة الرابعة في غرفة اللحاد بازوج المجاورة لغرفتها، إن الساعة لا تزال الرابعة فقط، وانفجرت جرفيز باكية من فرط اليأس والجوع، إنها لن تجد القوة الكافية للانتظار حتى السابعة، موعد عودة زوجها، وأخذت تتمايل يمينًا ويسارًا كطفلة تتألم، وتضغط على سعدتها لتخفيف من آلامها، آه.. إن آلام الوضع أهون كثيرًا من آلام الجوع! واستبدت بها ثورة من الغضب المفاجئ، فراحت تتمشى كحيوان سجين داخل الغرفة، آملة أن يهدها التعب لتنام مرة أخرى، وظلت نحو نصف ساعة وهي تتخبط في جدران الغرفة الخاوية، وفجأة توقفت وحملقت بعينيها! نعم.. ليقولوا ما يريدون قوله. إنها على استعداد لأن تقبل أقدام ألد أعدائها.. لوريليو وزوجته نظير إقراضها نصف فرنك.

لقد اعتاد جيرانها، سكان البيت الفقراء، أن يتبادلوا القروض طوال فصل الشتاء، ولكنهم جميعًا كانوا يفضلون الموت جوعًا على الذهاب إلى آل لوريليو لاقتراض شيء منهما، إذ كان المعروف عنهما أنهما على استعداد لرؤية أي انسان يموت جوعًا أمامهما دون أن يقدما له نصف فرنك قرضًا.

واحتاجت جرفيز إلى كل معينها من الشجاعة لتنقر على باب مسكنها، وكان قد بلغ بها الخوف والقلق وهي في الطريق إليهما أن شعرت بالارتياح الكامل عندما استطاعت في النهاية أن تطرق الباب، تمامًا كما يفعل المريض عندما يطرق باب طبيب الأسنان!

وسمعت من الداخل صوت لوريليو وهو يقول بجفاء:

– ادخل..

آه.. ما أمتع الوقوف داخل المسكن.. إن النار متوهجة في أتون صهر السبائك، وقد بلغ من دفء المكان أن العرق كاد يلمع على وجهي لوريليو وزوجته وهما منهمكان في عملهما. وهناك أيضًا تلك الرائحة الشهية رائحة حساء اللحم المتصاعدة من إناء على النار. إن هذه الرائحة فقط جعلت جرفيز تترنح في مكانها، كأنها سكرى.

ودمدم لوريليو دون أن يدعوها إلى الجلوس:

– آه.. أهذه أنت؟! ماذا تريدين؟

إن جرفيز لم تكن في حالة خصام مع الزوجين في ذلك الأسبوع، ومع هذا انعقد لسانها في فمها حتى لا ينطق بطلب القرض. وكانت قد رأت البواب بوش جالسًا في ركن الغرفة، يضحك كالوحش. ويردد ما لديه من فضائح عن الجيران والسكان.وعاد لوريليو يقول:

– ماذا تريدين؟

وأخيرًا قالت جرفيز متلعثمة:

– ألم ير أحدكم كوبيو؟!

وضحك البواب بوش، ولوريليو.. وقال هذا الأخير:

– لا.. إننا لم نعد نراه، لأننا لم نعد نقدم إليه كأسًا من الخمر بين الحين والآخر.

وبذلت جرفيز جهدًا عميقًا لتقول مرتبكة:

– لقد وعد أن يأتي إلي ببعض المال الليلة، وبما أني الآن في أشد الحاجة إلى نصف فرنك.

وخيم الصمت العميق الذي لم يكن يقطعه إلا أزيز النيران في الأتون وحسيس المنفاخ الذي يضرم النار. وحنى لوريليو رأسه فوق السلسلة الذهبية التي يصنعها، وفتح بوش فمه في ضحكة حيوانية رهيبة، بينما أكملت جرفيز حديثها المضطرب قائلة:

– نصف فرنك فقط.. ألا يمكن إقراضي نصف فرنك فقط.. سوف أرد هذا القرض الليلة.. أقسم على هذا.

واستدارت إليها مدام لوريليو بنظرات نارية.. نظرات مشحونة بكل ما أرادت أن تقول لها.. إنها الآن تقترض نصف فرنك، وغدًا سوف تقترض فرنكًا.. وماذا سيمنعها من الاستمرار في الاقتراض إلى ما لا نهاية.

وصاحت في النهاية قائلة:

– لا لا.. يا عزيزتي، إنك تعرفين تمام المعرفة إننا لا نملك مالًا. انظري إلى جيبي! إنه أنظف من الإناء الخزفي بعد غسله.. يمكنك أن تفتشيني إذا شئت. كان يسرني جدًّا لو استطعت أن ألبي رغبتك..

وقال لوريليو بصوت كالدمدمة:

– إن الإنسان يسره أن يقدم خدمة بسيطة كهذه لمعارفه لو كان ذلك في مقدوره.

وحنت جرفيز رأسها في ذلة وهوان.. ولكنها لم تنصرف، وإنما ركزت نظراتها على الذهب.. أسلاك الذهب المعلقة على الجدران.. شذرات الذهب الموضوعة على المائدة.. حلقات الذهب في السلسلة التي يعمل فيها لوريليو، سبيكة الذهب التي تتناولها مدام لوريليو من الأتون وتعمل على سحبها أسلاكًا، وفكرت في أن ذرة صغيرة من هذا الذهب يمكن أن توفر لها وجبة طعام شهية. وإذا كان المسكن في الواقع يبدو في ذلك المساء قذرًا مزدحمًا بأدوات العمل، إلا أنه كان في نظر جرفيز قصرًا متألقًا بالذهب، ومن ثم تجرأت وعادت تقول:

– لسوف أرد لكما القرض الليلة. إن نصف فرنك ليس بالمبلغ الكبير الذي سأعجز عن رده!

ولم يطاوعها قلبها الكسير أن تعترف لهما بأنها لم تتناول كسرة خبز منذ يوم ونصف يوم، وتخاذلت ساقاها فجأة، وطفرت الدموع إلى عينيها وهي تتوسل قائلة:

– أرجوكما.. لن أنسى لكما هذا الجميل.. يا إلهي.. إنني لا أستطيع أن..

وزم لوريليو شفتيه ونظر إلى زوجته! لقد انحدرت "العرجاء" إلى هاوية التسول، لقد وصلت أخيرًا إلى القاع، وإن عليهما بعد ذلك أن يغلقا بابهما دونها تمامًا.. لن يسمحا لها حتى بمجرد الوقوف أمامهما، إن الإنسان الذي يصل إلى هاوية التسول، لا يتردد في سرقة أي شيء يقع بين يديه، وأنهما ليعملان في الذهب، عليهما أن يحرصا على رزقهما، وإلا انتهى بهما الحال إلى هذا المنحدر!

ولما حاولت جرفيز أن تقترب منهما بعض الشيء، صاح لوريليو محذرًا:

– انتظري.. لا تتقدمي خطوة أخرى وإلا علقت بعض شذرات الذهب في نعلي حذائك. ومن يدري.. فلعلك تتعمدين هذا!

وتراجعت جرفيز ببطء، ورفعت كفيها إلى أعلى، وقالت في مزيد من الذلة والهوان:

– إنني لم آخذ شيئًا.. إنني لست سارقة.

ثم انصرفت بعد أن خشيت من السقوط مغشيًّا عليها لفرط ما أحست به من دوار بسبب رائحة مرق اللحم.

وقال لوريليو لزوجته بعد انصرافها:

– لقد تخلصنا منها أخيرًا..

وقالت الزوجة:

ـ إن هذا أقل ثمن تدفعه بسبب سيرها في الطرق الملتوية من الحياة!

الفصل الثالث عشر

لم تستطع جرفيز أن تعود إلى غرفتها الموحشة الخاوية الباردة، فهبطت درجات السلم وقد جعلها اليأس تتمنى الموت.

وانطلقت في الطريق تلعن القدر حتى وصلت إلى المبنى الذي تزعم لها كوبيو أنه يعمل فيه، وكانت ساقاها هما اللتان قادتاها إلى المكان، وكانت معدتها قد عادت إلى تعذيبها، وراح الجوع يتمشى في أوصالها، ولو أنها أمسكت بكوبيو – وهي في هذه الحالة – أثناء خروجه من المبنى، لانتزعت النقود منه، وأسرعت إلى أقرب مكان لشراء حاجتها من الطعام.

وكان عليها أن تنتظر نحو ساعة حتى يحين موعد انصراف العمال، وكان المبنى محاطًا بسور مرتفع ليس فيه غير باب حديدي لخروج العمال ودخولهم، وكان يقع في شارع كاربونيير في تقاطعه بشارع دي شارنر، أي في مفترق لعين تلسعك فيه الرياح الباردة من كل جانب، ولم يكن الانتظار سهلًا حتى مع التمشي ذهابًا وجيئة التماسًا للدفء. وكانت السماء لا تزال مكفهرة في لون الرصاص، والثلج المتراكم فيها يغطي المكان كله بخوذته الجليدية ولم يكن ثمة تساقط للجليد، ولكن السكون الرهيب كام مخيمًا منذرًا بكساء جديد لباريس.. كساء أبيض جميل كأنه ثوب راقصة بالية. ونظرت جرفيز إلى السماء وابتهلت ألا تتساقط الثلوج إلا بعد انصرافها، وضربت الأرض بقدميها ونظرت إلى البقال في الجانب الآخر، ثم أشاحت بوجهها وهي تدرك أنه لا جدوى من النظر إلى الأشياء التي تزيد جوعها سعارًا. ولم يكن هناك

ما يلفت النظر في الشارع.. عدد قليل من المارين المسرعين المدثرين حتى العيون، وهذا أمر طبيعي، لا يعقل أن يتسكع أحد في جو بارد منذر بالجليد كهذا. ومع هذا لقد لاحظت جرفيز أربع أو خمس نساء يقفن مثلها أو يتمشين أمام المبنى. نساء بائسات مثلها ينتظرن أزواجهن العمال لينقذن الأجور من الذوبان في الحانات القريبة. وكانت بينهن امرأة ضخمة الجسم لها وجه كوجه الشرطي، واقفة بجوار الباب، متحفزة للوثوب على زوجها بمجرد خروجه، وكانت هناك امرأة أخرى صغيرة الجسم، رقيقة الملامح سوداء الثياب، تروح وتجيء على الجانب الآخر من الشارع، وامرأة ثالثة شاحبة الوجه، أحضرت معها طفليها اللذين كانا يبكيان ويرتعدان من البرد. ولم يكن هناك حاجة إلى أن يتعارفن فيما بينهن.. لقد كن جميعًا زميلات تحت شعار واحد "الفقر وشركاه". وكان منظرهن رائحات آتيات في ذلك الجو الرهيب من شهر يناير، يزيد في النفس الشعور بالبرد والأسى.

وأخيرًا فتح الباب وخرج أحد العمال، ثم تبعه ثان وثالث، ولكن هؤلاء كانوا – كما يبدو – مواطنين صالحين، يحملون أجورهم إلى بيوتهم رأسًا، والدليل على هذا أنهم كانوا يهزون رءوسهم في أسى حين رأوا النساء المنتظرات. وظلت المرأة الضخمة متحفزة بجوار الباب، وفجأة انقضت على عامل صغير الجسم كان يخرج متلفتًا في حذر، وسرعان ما فتشته واستولت على أجره، وتركته يتبعها باكيًا كطفل، وخرج عامل ضخم الجسم، فلما رأى المرأة ذات الطفلين، أسرع عائدًا ليحذر زوجها. واستطاع الزوج أن يخفي في حذائه جزءًا من أجره، ثم خرج وحمل أحد الطفلين، وسار أمام زوجته وهو يكيل لها السباب.

أما الزوجة الصغيرة الرقيقة، فقد خرج زوجها، ودفع بها بعيدًا عنه، وسار لا ينوي على شيء، ومضت هي منكسرة الجناح، تبكي بحرارة.

وانقطع أخيرًا خروج العمال. ووقفت جرفيز في وسط الشارع تحملق في ذهول إلى الباب المفتوح. ثم خرج عاملان آخران، وسألتهما جرفيز عن كوبيو، وهز العاملان رأسيهما، وقال أحدهما إن كوبيو لم يحضر للعمل في ذلك اليوم، ولا في الأيام السابقة. ومعنى هذا أنه كعادته، قد خدعها. وسارت في شارع كاربونيير وهي ترى أملها في الطعام يزداد بعدًا وانحسارًا. وأخذت ترقب الأمل المتلاشي مع بقايا النهار، وهي ترتعد بشدة. لقد انتهى أمرها هذه المرة، فلا عون أمامها، ولا أمل. وإنما هناك فقط الليل والجوع، وما أقساها ليلة باردة يجوع فيها الإنسان!

وفيما هي تقترب من نهاية الشارع، سمعت صوت كوبيو فجأة.

وكان في حانة "بتيت سيفيت" وكان صديقه مبيوتس يقدم له على حسابه كأس خمر، وكان مبيوتس – المهزار – قد تزوج في نهاية الصيف أرملة تكبره بعشر سنوات، تمتلك بيتًا كبيرًا، وهكذا أصبح مبيوتس يعيش "كأبناء الذوات" ممتلئ الجيوب بالمال دون أن يعمل شيئًا.

ووضعت جرفيز يدها على كتف كوبيو وهو خارج مع صديقه من الحانة، ثم قالت:

– إنني في انتظارك.. إنني جائعة. ألا تعطيني شيئًا اشتري به طعامًا؟

فنظر إليها برهة ضاحكًا وقال بصوت مخمور؟

– أجائعة أنت؟ كلي بعضك إذن! ولا تنسي أن تتركي جزءًا للغد!
وتجاهلت سخريته وتمتمت قائلة:

– هل تريد مني أن أسرق لآكل؟

وحك مبيوتس ذقنه ثم قال:

– لا لا.. إن القانون لا يسمح بهذا، ولكنه يسمح بأشياء أخرى.

وضحك السكيران عاليًا.. وسارا بعيدًا عن جرفيز التي هتفت قائلة وهي تحاول اللحاق بها رغم عرجها!

– إنني جائعة جدًّا. وكنت في انتظار عودتك لتشتري لي شيئًا. يجب أن تجد لي شيئًا آكله.

ولما لم يجب، قالت بصوت يمزق القلب:

– إذن فلن تعطيني شيئًا.

وصاح قائلًا:

– عليك اللعنة.. إذا لم تنصرفي عني فسوف أنهال عليك ضربًا.

وتراجعت أمام قبضة يده المرفوعة، ثم قالت بلهجة الذي قرر أمرًا:

– حسنًا جدًّا.. سوف أبحث عن رجل يطعمني.

وانفجر كوبيو ضاحكًا، واعتبر كلماتها فكاهة، وراح يحثها على تنفيذ تهديدها قائلًا إنها فكرة جميلة.. في الليل وتحت مصباح الشارع، يمكنها أن تظفر بما تشاء، فإذا اصطادت رجلًا، فعليها أن تذهب به إلى مطعم

"كوبيكان؛ لأن فيه غرفات صغيرة خاصة لا يدخلها الخدم إلا بإذن خاص.

وفيما هو ينعطف بعيدًا عنها، أردف قائلًا:

– لا تنسي أن تحضري لي معك بعض الحلوى، إنني أحب الكعك، وإذا كان صيدك سمينًا، فاطلبي منه معطفًا.. إنني في حاجة إلى هذا المعطف.

وانصرفت جرفيز مسرعة وهذه الكلمات تطاردها.. ولما وصلت إلى شارع تكثر فيه الحركة، خففت من خطوها.. إن عليها أن تسرق أو تفعل هذا، وهي تفضل أن تفعل هذا على السرقة، لأنها على كل حال، لن تؤذي أحدًا، أو تحرم أحدًا، رغمًا عنه، من ماله، إنها فقط سوف تضحي بشيء من أشيائها هي، وإذا كان – ولا شك – ليس بالسلوك اللائق، فإن اللائق وغير اللائق يتصارعان في نفسها ويختلطان ثم يتساويان بسبب اضطراب تفكيرها من فرط الشعور بالجوع، والإنسان عادة لا يفلسف الأشياء عندما يوشك أن يموت جوعًا، وإنما هو يأكل أي شيء يقدم إليه دون النظر إلى الوسيلة التي تقدم بها هذا الشيء إليه، إنه قد يفكر في الوسيلة فيما بعد، وقد يستنكرها، ولكنه في حالة الجوع، لا يفكر إلا في أن يملأ بطنه..

وسارت إلى شارع شوسيه كلينان كورت، وساءها أن الليل لم يتكاثف بعد، وأخذت تروح وتجيء في الشارع، وكأنها تنتظر موعد العشاء.

وكانت المنطقة التي تمشي فيها، من المناطق الجديدة، ذات الشوارع الواسعة، والأشجار الحديثة العهد، والأنوار العصرية، والمنازل الجديدة، جنبًا إلى جنب مع واجهات أو بقايا المنازل القديمة التي اخترقتها الشوارع المستحدثة.

وكانت جحافل العمال من كل صنف ولون قد بدأوا ينصرفون من أعمالهم إلى بيوتهم أو الحانات.. ودبت الحياة بكل قوتها في الطرقات التي ازدحمت بالمركبات وبالرجال والنساء والفتيات.. وشعرت جرفيز مع دبيب الحياة في الشوارع بمزيد من الوحشة والعزلة والمهانة، وكأنها تسير في عالم خاص لا يشعر فيه بها أحد، أو يراها أحد!

ولكن هذه الصحوة المفاجئة، لم تلبث أن تراجعت بعد انصراف العمال، كل إلى طريقه، وعاد السكون مخيمًا، ولم يبق في الطرقات إلا العابرون المسرعون المدثرون بالمطارف إلى عيونهم، وازداد إحساس جرفيز بالعزلة وبالإرهاق والمذلة، لقد كانت في يوم ما عاملة مثل هؤلاء العمال.. وكانت تنصرف مثلهم في نهاية اليوم إلى بيتها.. ولكنها الآن تتمنى لو استطاعت أن ترقد على الطوار لتموت، لأنه لم يبق لها أي أمل في العمل.. لقد عملت كثيرًا حتى هدت قواها. والآن، وقد فقدت القدرة على العمل، أو الرغبة في العمل، فليس أمامها إلا أن تموت جوعًا، تلك إذن هي النهاية.. النهاية.. لقد اختفت الشمس تمامًا.. وسوف يطول الليل، يا إله السماء! لم يبق إلا أن ترقد فلا تقوم.. تضع أدوات عملها إلى الأبد بجوارها، ثم تنام بلا يقظة، ما أجمل هذا بعد أن أرهقت نفسها بالعمل الدائب عشرين عامًا، ولكن جرفيز، رغم الآلام، ترتد بالذاكرة إلى أيام عزها.. أيام أن كانت صاحبة محل ناجح للغسيل والكي.. وكانت لا تزال محتفظة بجمالها والتفاف جسدها وتألق شعرها الذهبي، وأنها لا تنسى ذلك اليوم الذي أمضته مع بعض الجيران في نزهة ريفية.. لقد كانت ملكة الرحلة يومذاك.. وكان الناس يلتفتون إليها معجبين بجمالها.. فماذا حدث الآن؟ إنها تنظر إلى الأرض.. إلى بالوعة المجاري

وقد خيل إليها أن تاجها.. تاج الشباب والجمال قد سقط منها وانزلق فيها!

وسارت جرفيز في الشارع الطويل.. في أي شارع طويل دون أن تدري أين هي.. وكانت الحانات ودور اللهو والشراب قد أضاءت أنوارها فأصبح الشارع كله، من أقصاه إلى أقصاه، وعلى الجانبين، مهرجانًا من الضوء والموسيقى وصلصة الكئوس وأصوات الغيبين والشاربين.. وكانت هذه العبارة تصل أذنها كلما سارت بضع خطوات:

– هلم ندخل هنا لنأكل شيئًا.

وكلما التفتت بسرعة وهي تحسب هذه العبارة موجهة إليها، رأت أنها موجهة من صديق إلى آخر، أو من عاشق إلى فتاته.

وكانت الأبواب تفتح وتغلق بلا انقطاع، وبين الإغلاق والفتح تنساب الأصوات والنغمات ولفحات من روائح الخمور.. وظلت جرفيز في مسيرها حتى وجدت أنها دارت دورة كاملة، وعادت إلى منطقة سكناها.. بالقرب من حانة بيير كولمبوس.. وكان صاحبها العجوز قد مات، وجددها ابنه، وجعل منها ملهى ليلي صاخبًا بالرقص والغناء والشراب. وكان الضجيج المنبعث منها يرتفع إلى عنان السماء، ويملأ الجو في الشارع، مما جعل المواطنين العاديين المسرعين إلى بيوتهم، يهزون رءوسهم في أسف، وهم ينظرون إلى ذلك الحشد العابث داخل الحانة.

ووقفت جرفيز متسمرة أمام الحانة في الجانب المقابل تفكر وتحلم لو كان معها نصف فرنك، لأمكنها أن تدخل وتشرب قدحًا من النبيذ، وتأكل بضع كسرات من الخبز والجبن، آه.. إنها تذكر اليوم الذي جلست فيه مع

كوبيو بعد الظهيرة، تنصت إلى محاولاته لإغرائها بالزواج منه، وكان في ذلك الحين يكتفي بشرب القليل من النبيذ دون الكحوليات. وكان أشد ما أغراها بالزواج منه أنه من الكارهين للخمور.. فماذا حدث، ولماذا أصبح أشد إدمانًا من جميع أصدقائه ومعارفه؟

وأفاقت جرفيز من أحلامها، وقررت أنها إذا لم تعرض جسدها للبيع في تلك الساعات، فسوف تموت جوعًا، حتمًا.. واعتدلت في وقفتها وسوت خصلات شعرها، وتحركت في ظلال الأشجار حتى لا تبدو على حقيقتها أمام الرجال المارين بها.. فقد كانت تعرف أنها لم تعد تملك ما يغري الرجال بها.. فقد شحب وجهها وأمسى شعرها الذهبي المتألق مثل شواشي الأذرة، ولم يكن ثوبها خاليًا من البقع والخروق، كما كان حذاؤها باليًا رثًّا..

ولم تكن بمفردها في هذا الموقف.. بل كانت هناك، في ظلال الأشجار على جانبي الشارع، نساء مثلها، واقفات، كأنهم أعمدة صغيرة يحملقن في الطريق، منتظرات الصيد.. وكانت بينهن امرأة ضخمة، لها ذراعان وساقان، كالعنكبوت.. وأخرى تضع على رأسها منديلًا أصفر، وثالثة طويلة ممشوقة القوام، على صدرها مبدعة الخدم، وغيرهن.. عجائز.. قذرات يرفض جامع القمامة أن يلبي رغباتهن.. ولم تدر ماذا تفعل جرفيز.. لقد كان الخوف يسري في بدنها.. ويعقد لسانها.. وكان الإحساس بالعار والمذلة يجعلها تحس كأنها تعيش في حلم رهيب، وظلت واقفة في مكانها نحو ربع ساعة.. وأخيرًا قررت أن تستجمع شجاعتها، وتفعل مثلما تفعل النسوة الأخريات. وانتهزت مرور رجل بمفرده، يضع يديه في جيوب معطفه، ويصفر بشفتيه، وتقدمت خطوة نحوه وقالت:

– أتسمح من فضلك؟

ونظر الرجل إليها، ثم سار في طريقه وقد علا صفيره!

وازدادت جرفيز جرأة، ونسيت نفسها في ثورة حماسها للصيد، وفي رغبتها الملحة إلى الطعام الذي بدا أنه يزداد بعدًا عنها في كل لحظة. وأخذت تسير على الطوار.. تخرج من الظلال حينًا، وتعود إليها حينًا آخر.. وكذلك كانت النسوة الأخريات يفعلن.. يظهرن ويختفين، كالأشباح.. وكان بعض الرجال يقفون ليتحدثوا قليلًا مع هذه أو تلك، ثم ينصرفوا ضاحكين..

وكان ثمة رجال آخرون، يسيرون وراء بعض الفتيات الجميلات، بائعات الهوى، ويدور في سكون الليل همس المساومات.. ثم يختفي الجميع!

وكلما فشلت جرفيز في اصطياد رجل، ازدادت غضبًا وإلحاحًا، وغيرت مكانها من شارع إلى آخر..

– أتسمح من فضلك.

ولكن الرجال كانوا يمرون بها، وكأنهم لم يسمعوا شيئًا.. ولكنها لم تتراجع، وكأن حياتها كلها مركزة في هذه العبارة.

– أتسمح من فضلك؟

ولم تلبث أن رأت خيالها، تحت مصباح، في الشارع.. خيالها وهي تعرج بشدة. وكان الخيال – أو الظل – يتجمع وينبسط كلما تحركت وسارت على قدمها العرجاء. يا إلهي.. ما أعجب هذا! إنها لم تتصور من قبل المدى

الذي وصلت إليه في انحدارها. ولكنها مع هذا لم تلبث أن رددت هذه العبارة حين مر بجوارها رجل:

– أتسمح من فضلك؟

وبدا لها أن الليل قد أوغل، وأن المحال قد أغلقت أبوابها.. نعم.. إن المطاعم قد أغلقت أبوابها. وخفتت الأضواء في الحانات، وتحولت الأصوات الصادرة منها إلى أنفاس متحشرجة وهمسات مخمورة، وانتهت أصوات الغناء والبهجة إلى معارك وسباب، ورأت جرفيز فتاة وحبيبها يتضاربان أمام مدخل قاعة للموسيقى، وسمعت الفتاة تقول لحبيبها إنه حيوان قذر. وشاعت رائحة الخمر من الأنفاس وملأت الجو، ووقعت معركة في الشارع سقط على أثرها أحد السكارى وفر الآخرون، وقد حسبوه ميتًا. وسارت جماعات من السكارى وهم يولولون بالغناء الخليع، ثم يسود الصمت الذي لا يقطعه غير سعال المخمورين وحشرجة أنفاسهم، وسالت في كثير من جنبات الشوارع الخمر التي لفظتها البطون.. وكان السائرون يتجنبون الخطو فوقها وهم ماضون. ولو أن أجنبيًا رأى تلك الشوارع قبل أن تنظف في الصباح، لما صدق عينيه. ولكن السكارى كانوا في هذه الساعات من الليل ملوكها.. ملوك هذه الشوارع وأصحابها.. إنهم لا يهتمون بما يجري في أي مكان بالعالم.. وإنما يفرغون ذرات بطونهم.. ويعودون للشرب.. ويخرجون السكاكين والمدى من جيوبهم، وتنتهي الليلة بالجرائم، وتجرى النساء بعيدًا.. ويمضي الرجال بعيون حمراء كعيون الذئاب.

وظلت جرفيز تعرج وهي تسير على غير هدى، وكأنما قررت أن تسير

حتى آخر لحظة من العمر. ويبدو أنها غفت قليلًا في سيرها، لأنها حين فتحت عينيها، تلفتت حولها كالذي يفيق من سبات، ووجدت أنها انتقلت إلى شارع آخر دون أن تدري. وحاولت أن تفكر ولكنها وجدت التفكير عسيرًا عليها.. ترى أين ابنتها الآن؟ لعلها تأكل المحار مع رجل في مثل سن أبيها، ولكنه واسع الثراء.. لا شك أنها الأن تستغل شبابها وجمالها المذهل.. ولكن لابد إذا سارت في هذا الطريق أن ينتهي بها المطاف إلى ليلة كهذه.. ولكن.. ما لها ولابنتها.. إنها تريد أن تأكل.. وأن تجد مكانًا تهرب فيه من هذا الصقيع.. آه.. إن الموتى في قبورهم لا يمكن أن يشعرون بمثل هذا البرد!

وتساقطت الثلوج فجأة، وزادت الرياح.. وأحست جرفيز كأن العالم قد أوشك على النهاية، وتسابق المارون في الهرب من البرد والمطر والثلوج.. وحاولت جرفيز أن تسرع الخطى.. ولكن إلى أين؟ إنها تلمح رجلًا في ظل شجرة.. وإنها لتسرع إليه:

– أتسمح من فضلك؟

يا للهول؟ إنه جارها العجوز المتعطل برو.. إنه واقف في مكانه يتسول شيئًا قبل أن يعود إلى غرفته أو جحره الواقع تحت السلم. وابتعدت جرفيز مسرعة قبل أن يتبينها العجوز رغم نظره الأعشى.. وظلت في سيرها وهي تحاول جاهدة أن تحتمي بالأشجار من البرد والمطر والثلوج. وتلبد شعرها، والتصق الثوب بجسدها، وازدادت الرعدة في أطرافها. ووصلت إلى مفترق للطرق.. ولكنها لم تعد تتبين طريقها.. فقد كانت الثلوج تكسو كل شيء.. حتى المصابيح التي بدت خافتة خابية الضوء.. وتحت قدميها كانت الأرض

تتراجع، كما خيل إليها.. وكانت الجدران الرمادية المصنوعة من السحب الخفيفة تسد عليها كل منفذ في الطريق، ولكنها لم تيأس.. لقد ظلت تسير وهي تأمل أن تتبين معالم طريق تعرفه، وأخيرًا وصلت إلى التقاء شارعين.. أحدهما شارع دي ماحينا، والأخير دورنانو.. وخطر لها أن ترقد تحت شرفة بارزة في الشارع الأخير وتلتقط أنفاسها.. ولن يهمها بعد أن يسفر عليها الصباح أو لا يسفر.. إن كل ما تهفو إليه، أن تجد مكانًا ترقد فيه بعيدًا عن المطر والثلوج والرياح العاصفة.

وفي تلك اللحظة سمعت وقع خطوات رجل يقترب.. وجمعت نفسها لتقول له عبارتها التقليدية.. لا شك أنه فرصتها الأخيرة.. ومن يدري، فلعله يصحبها بدافع الشفقة، إذا لم يكن بدافع الرغبة..

ولكنها لفرط اضطرابها، فوجئت به متجهًا إلى الجانب الآخر، فأسرعت وراءه لاهثة، وقالت وهي تمسك بذراعه:

– أتسمح من فضلك؟

واستدار الرجل مدهوشًا.. فكوجيت كان هو الحداد !

الفصل الرابع عشر

شحب وجه جرفيز.. أو على الأصح ازداد شحوبًا حتى أمسى كوجوه الموتى، يا للسماء! ماذا فعلت حتى تتعذب إلى هذا الحد؟ إن هذا الموقف هو الضربة الأخيرة.. أقسى ضربة يوجهها القدر إليها. أما يكفي تعذيبها بالجوع الرهيب حتى يجعلها تقف أمام الإنسان الوحيد الذي أحبها بإخلاص، في هذا الوضع الشائن.. وضع المرأة التي تبيع جسدها لكل عابر سبيل، ترى ما هي الخواطر التي تراوده عنها الآن؟ إنها ترى خيالها على الثلوج التي تكسو الشارع، فيخيل إليها أن هذا الخيال تحول إلى حيوان قميء يتراقص ساخرًا منها.. لا شك أن كوجيت يحسبها مخمورة سكرى.. مخمورة تبحث عن أحضان أي رجل مخمور مثلها في ليلة كهذه.

وكان كوجيت في خلال هذه اللحظات الخاطفة يحملق فيها كأنه لا يصدق عينيه، غير حافل بندفات الثلج المتساقطة على قبعته ومعطفه، ولما استدارت لتهرب منه، أمسك بذراعها، وتمتم قائلًا:

– تعالي.

وسار هو أولًا، وتبعته هي في استسلام. وظلا يسيران معًا في صمت خلال الشوارع القاتمة.. وكانت مدام كوجيت قد ماتت في شهر أكتوبر السابق متأثرة بمرض الروماتيزم الحاد، وكان كوجيت لا يزال يقيم في نفس المسكن بشارع نيف.. وحيدًا.. وكان في تلك الليلة قد غادر المستشفى بعد أن سهر فترة طويلة بجوار زميل له أصيب أثناء العمل إصابة بالغة.

ولما وصل إلى المسكن، وفتح الباب، وأشعل السراج، التفت نحو جرفيز التي وقفت في ذلة تنتظر أوامره، ثم قال بصوت خافت كأنما أمه لا تزال بالداخل:

– ادخلي.

وكانت الغرفة الأولى، الخاصة بمدام كوجيت، قد ظلت كما هي محتفظة بآثارها وذكرياتها، فعلى مقعد بجوار النافذة طاره التطريز، وبجانبها المقعد الوثير الكبير كأنه في انتظار صاحبته.. والفراش مرتب، يمكنها النوم فيه إذا تركت المدافن يومًا لتنام في مسكنها! وكان جو الغرفة يوحي بالسكينة والخير والسلام.

وعاد كوجيت يقول بصوت أكثر وضوحًا:

– ادخلي..

وتقدمت في اضطراب مثل البغية التي تجد نفسها فجأة في مسكن محترم. وكان هو أيضًا ممتقعًا، مرتعد الأطراف لمجرد تفكيره. في أنه أحضر معه امرأة في غرفة أمه المتوفاة. واجتاز الغرفة في صمت ووفق كأنما يخشيان أن يسمعهما أحد، ولما دفع كوجيت جرفيز إلى الغرفة الأخرى الخاصة به، أغلق باب غرفة والدته بسرعة. إنه الآن في مملكته الصغيرة الخاصة.. وإنه ليتنهد أخيرًا في ارتياح، ولكن جرفيز وقفت متسمرة في مكانها وهي تنظر مرة أخرى إلى هذه الغرفة الصغيرة النظيفة، التي تبدو تمامًا كغرفة تلميذة شابة.

وانكمشت جرفيز وهي تمتم في ذهول:

– يا إلهي.. يا إلهي!

وكانت النيران الهادئة تتوهج في المصطلى، وفوقها إناء به كمية كبيرة من اللحم وحساء الخضر، وكانت كوجيت قد تركه على المصطلى لينضج ببطء، ريثما يعود من مهمته بالمستشفى. وشعرت جرفيز بعد أن سرى الدفء في عروقها، أنها على استعداد للركوع على يديها وساقيها لتأكل من الإناء كما يفعل الحيوان الجائع. إن رائحة الطعام ضاعفت من شعورها بالجوع.. وجعلت معدتها تتلوى وتتمزق.. وأدرك كوجيت حالتها، فوضع الإناء بأكمله على المائدة الصغيرة، وراح يفتت فيه كسرات الخبز ثم وضع بجانبه زجاجة نبيذ.

وتمتمت قائلة في تخاذل:

– شكرًا.. إنك إنسان طيب.. نبيل.. ألف شكر.

وعجزت يدها عن استعمال الشوكة.. لقد أفقدها الجوع كل قدرة على تمالك أعصابها، ومن ثم راحت تستعمل أصابعها في التهام الطعام الذي بدأته بالتقاط حبات البطاطس الناضجة.. ثم باقي الخضر.. وانفجرت باكية عندما أحست بمذاق أول كمية من الطعام.. وتساقطت دموعها على الخبز والإناء، ولكنها ظلت تأكل وتأكل في نهم وهي تلهث، وأرغمها كوجيت على أن تشرب بعض النبيذ حتى لا تختنق بالطعام وحده، وصلصلت الكأس على أسنانها وهي تشرب، وأخيرًا قال لها كوجيت:

– هل أفتت لك مزيدًا من الخبز؟

وبكت.. وقالت:– لا.. ثم قالت:– نعم.. ولم تدر ماذا هي قائلة يا إله السماء؟ ما أعظم نعمة الطعام عندما يكون الإنسان جائعًا؟

وظل هو في مكانه بجوار السراج، يحملق فيها.. لقد ذابت الثلوج التي تساقطت على رأسها، وانثالت ماء بلل وجهها وملابسها، وكان منظرها العام، وهي منكمشة على نفسها، مطرقة، مطرقة الرأس لفرط شعورها بالمذلة والهوان قد جعل الدموع تطفر إلى عيني كوجيت.. آه.. لشد ما كان الحب تبادلاه يومًا.. ولشد ما كان يقنع منذ سنوات بالنظر إليها ساعات بعد ساعات دون أن يمل أو يسأم، وما أكثر الليالي التي كان يمزق فيها الوسائد لفرط شوقه إليها ورغبته فيها، ولهفته إلى أخذها بين ذراعيه.. آه.. لو أنه ظفر بها في ذلك الحين لحطم عظامها من فرط شوقه إليها وعنف عناقه لها.. والآن.. ها هي أمامه.. في غرفته.. وتحت رحمته.. يمكنه أن يفعل بها ما يريد.

وفرغت من طعامها، ومسحت دموعها الكبيرة المتساقطة في صمت ثم نهضت وحنت رأسها في اضطراب، وهي لا تدري هل سيأخذها بين ذراعيه أو لا؟ ولما رأت ومضة من بريق الرغبة فيها تلمع في عينيه خيل إليها أنه قرر أن ينالها، فرفعت يدها لتفك أزرار ثوبها، ولكن كوجيت ركع أمامها، وأخذ يديها بين يديه، وقال في همس:

– إنني أحبك يا جرفيز.. إنني ما زلت أحبك بنفس القوة التي أحببتك بها يوم عرفتك أول مرة.. وأقسم لك على هذا.

وفقدت السيطرة على أعصابها، وقالت في ارتياب شديد وهي تراه راكعاً على هذا النحو أمامها:

– لا.. لا تقل هذا يا كوجيت.. إنني لا أستحق منك حتى الرحمة والعطف.

ولما أكد لها أنه لا يستطيع أن يحب مرتين في حياته، وأنها ستبقى دائمًا حبه الأول والأخير، وقالت وقد عادت الدموع إلى عينيها:

– أرجوك يا كوجيت.. انهض.. انهض.. إن الواجب أن أركع أنا أمامك.. إنني غير جديرة حتى بلمسة من يديك الطاهرتين.

ونهض مرتعدًا، وقال بصوت متلعثم:

– هل تسمحين لي بتقبيلك؟

وغرقت في بحر من الدهشة والعواطف الجياشة بحيث لم تجد ما تقوله. ولكنها أومأت رأسها موافقة، يا إلهي.. ألا يعلم أنها ملك خالص له، يمكنه أن يفعل بها ما يشاء؟

وأخذها بين ذراعيه برفق، ثم قبل شفتيها وهم يتمتم:

– متى.. متى.. متى نعيش معًا.. إلى آخر لحظة من العمر..

وتمتمت هي بصوت نابع من أعماق النفس:

– كوجيت.. كوجيت.. الله يعلم أنني أحببتك حبًّا لم أشعر به نحو رجل آخر.. ولولا شعوري بالعار والخجل لأقسمت لك أنني أحب التراب الذي تسير عليه.. ولكن لا.. لا.. إنني أصبحت غير جديرة بلمس حذائك.. وداعًا يا كوجيت.. وداعًا يا حبيبي.

واندفعت تجتاز غرفة مدام كوجيت، ثم خرجت من المسكن بينما ظل كوجيت متسمرًا في مكانه، لا يكاد يصدق أذنيه.

* * *

وفتح لها البواب بوش، باب المنزل، ودخلت إليه كأنها داخلة إلى مأتم.. الظلام مخيم، والسكون يرين على كل شيء، ورائحة العفن تتصاعد من الفناء.. وفتحة السلم تبدو كفم رهيب يريد أن يبتلعها، والأصوات الخفية المفعمة برنين اليأس تتردد في أذنيها.. إنها تسمعها كما سمعتها يوم وضعت رجليها أول مرة في هذا البيت اللعين.. إنه بيت الفاقة والآلام والأحزان واليأس.. إن الحياة في هذه الليلة تبدو كأنها تخلت عنه. ولولا غطيط البواب بوش الذي عاد إلى فراشه.. ولولا بعض الأصوات الخافتة التكرار التي تتردد من مساكن الفناء، لخيل إليها أنها تدخل مقبرة لا بيتًا.

ولم تتمالك نفسها وهي تصعد إلى غرفتها في الطابق الخامس من أن ترسل ضحكة ساخرة آلمتها.. لقد تذكرت آمالها في بدء حياتها.. آمالها البسيطة في أن تعمل وتعمل.. وأن تجد دائمًا كفايتها من الخبز، وأن تنام في مكان نظيف، وأن تربي أبناءها تربية صالحة، ثم تموت في النهاية، وهي راقدة على فراشها النظيف.

ما أجمل الآمال.. وما أقسى القدر حين يعبث بها، ويسخر منها ويشوهها. إنها لم تعد تعمل.. لم تعد قادرة على العمل.. وإنها تنام على خرقة بالية يأنف الكلب من النوم عليها، وإن ابنتها نانا ضالة في الشوارع، وأما زوجها فينهال عليها بالضرب كلما وقعت نظراته عليها. ولم يبق أمامها الآن إلا أن تموت في الشارع.. ولو كان في مقدورها أن تختصر الطريق، لألقت نفسها من النافذة.. ولكنها لا تستطيع أن تفعل هذا.

ولما بلغت الدهليز الواسع أمام غرفتها، كانت في حالة قريبة من

الذهول، إن رأسها يدور، وفي أعماق قلبها حزن كبير، لأنها ودعت، إلى الأبد، الإنسان الوحيد الذي أحبته أطهر وأنقى حب.. إنها لا تستطيع أن تراه بعد اليوم، إنها لن تستطيع أن تعيش معه كما عاشت مع لانتيير.. إن حبهما أنقى من أن تلوثه بهذا اللون من المعاشرة. وطالما هي زوجة لرجل آخر، فسوف تبقى محرومة منه إلى النهاية.

وقبل أن تصل إلى باب غرفتها، وقفت فجأة أمام باب غرفة اللحاد بازوج.. اللحاد الذي قام بإجراءات دفن حماتها مدام كوبيو، ودفن الزوجة المسكينة مدان بيجارد، والطفلة البائسة لاللي، ابنة العربيد بيجارد فلماذا لا يتولى هو، عملية تخليصها من هذه الحياة؟ أليست هذه مهمته.. أن ينقل الناس عن سطح الأرض إلى جوفها.

وكان العجوز بازوج قد عاد في تلك الليلة، وهو أشد ما يكون سكرًا وعربدة. وكان قد شرب من الخمر ما جعله يرقد على أرضية الغرفة غير حافل بالجو القارس. ولم تمنعه الخمر من أن يرى في منامه أحلامًا سعيدة، كما يبدو من ضحكاته العالية أثناء النوم. ولما رأته جرفيز على هذا الوضع، ظلت تتأوه وتتوجع حتى استيقظ. وهتف قائلًا في حدة:

– عليك اللعنة.. ألا تغلقين الباب. إن الجو شديد البرودة. آه. أهذه أنت.. جارتي جرفيز. ماذا تردين؟ هل مات كوبيو؟!

وبسطت جرفيز ذراعيها إليه في توسل وابتهال وهي تقول:

– آه. احملني إلى المدافن. لقد نلت كفايتي من الحياة وقسوتها. إنني أريد أن أستقر في مثواي الأخير. لا تقسو علي. أرجوك. إن الموت هو الرحمة

الوحيدة الباقية لي. أرجوك. احملني إلى المدافن.. ابتعد بي عن هذا العالم القاسي..

وركعت أمامه وهي ترتعد من قمة رأسها إلى أصبع قدمها من فرط لهفتها لتحقيق هذا الأمل. ولم يسبق في حياتها أن ركعت أمام رجل، ولكن وجه بازوج المجعد الدميم كان يبدو لها جميلًا باهرًا.. ولكن الرجل العجوز، نصف المخمور، ظن أنها تداعبه، فقال:

– أوه.. لا تحاولين إغرائي!

وهتفت بحماس أشد:

– أرجوك يا مسيو بازوج. أرجوك. إنني جادة. احملني في أحقر لحد لديك، وابتعد بي عن هذا البيت. عن هذه الحياة. خذني بعيدًا إلى حيث أستطيع أن أستريح. أن أنام. وأنام. ولا أصحو أبدًا.

وقال بازوج وهو لا يزال يعتقد أن الأمر كله دعابة:

– إنني متعب الليلة بعد أن واريت الثرى ثلاث عجائز.. وأعتقد أن كل واحدة منهن ما كانت لتتردد في أن تنفحني بقشيشًا لو أمكنها أن تضع يدها في جيبها. نعم. لقد كنت رفيقًا بهن جدًّا وأنا أضعهن في قبورهن. أما أنت. فلننظر في أمرك غدًا.

وسارت جرفيز إلى غرفتها مترنحة، وألقت بنفسها على بقايا الحشية البالية، وهي تتمتم:

– أقسى ما في الفقر أنه يقتل ببطء.

الفصل الخامس عشر

في تلك الليلة ظل كوبيو غائبًا عن المسكن، وفي الصباح تسلمت جرفيز حوالة بريدية بعشرة فرنكات من ابنها أتيين الذي كان يعمل وقادًا في قاطرة، وكان الغلام يرسل إليها مبالغ زهيدة بين الحين والآخر لإدراكه حالة الفاقة التي تعيش عليها أمه. واشترت جرفيز وجبة طعام شهية وأكلتها بمفردها، لأن زوجها الحيوان لم يحضر في ذلك اليوم، ولا في اليوم التالي أيضًا. وكذلك لم يحضر في يوم الثلاثاء أو الأربعاء. ومر أسبوع كامل دون أن تراه. اللعنة عليه. لا شك أنه عثر على امرأة بغية قبلت أن تطعمه من مالها الملوث. وحسنًا فعلت.. لقد خلصتها من عبء ثقيل.

ولكنها تسلمت في يوم الأحد التالي ورقة مطبوعة، فزعت منها في أول الأمر، لأنها بدت كأنها أخطار من مركز الشرطة لاستدعائها. ولكنها اطمأنت حين وجدت أنها مجرد إخطار بأن زوجها – العربيد – موجود بمصحة سانت آن للأمراض العقلية، في حالة سيئة جدًّا. ورغم لهجة الإخطار المهذبة، فقد صارحتها بأن امرأة تدعى صوفي لاريير هي التي حملت كوبيو في حالة يرثى لها إلى المصحة..

ولم تحفل جرفيز بالأمر.. إنها ليست المرة الأولى أو العشرة التي يحمل فيها كوبيو إلى مصحة الأمراض العقلية لعلاجه مؤقتًا من إدمان الخمر.. إنه سيخرج ويعرف طريقه يومًا إلى الغرفة، ليعود مرة أخرى إلى الادمان. ألم تسمع في ذلك الصباح بالذات، أن كوبيو ظل أسبوعًا كاملًا وهو في حالة

سكر كاملة، ينتقل من حانة إلى حانة، مع صديقه مبيوتس، الذي ينفق بإسراف من مال زوجته! واستبد الغضب بجرفيز حين خطر لها أن هذين العربيدين لم يفكرا لحظة في أن يرسلا إليها قليلًا من المال لتأكل.. هل سمع أحد بمثل هذا السلوك.. أسبوع كامل من الإدمان على الخمر، دون مجرد التفكير في إطعام الزوجة الجائعة!

وما دام الأمر كذلك، فليذهب إلى المصحة أو الجحيم!

ولكن جرفيز، في يوم الإثنين، شعرت بتأنيب الضمير بعد أن تناولت عشاءها المبكر من بقايا وجبة الغذاء، وخرجت تتمشى قليلًا. وكانت الثلوج قد ذابت، وتحسن الجو، ومن ثم شعرت بالراحة وهي تسير في الشوارع ممتلئة المعدة، ناعمة بالهواء المنعش في تلك الساعة من الأصيل، وقررت أن تذهب إلى المصحة لتزور كوبيو. فإن الزيارة لن تضرها على كل حال.. بل إنها ستقطع ألسنة الجيران الذين يتهامسون وراء ظهرها قائلين أنها لم تعد تهتم بزوجها، حتى وهو بين الموت والحياة في المصحة.

ومضى بها أحد المعاونين في المستشفى إلى الطابق الأعلى الذي تقع فيه غرفته. وسمعت صراخًا عاليًا وهي في الطريق إلى هذا الطابق، ونظرت في تساؤل إلى المعاون، وهي تشعر بالرعدة تسري في بدنها:

– ما هذا الصراخ؟

– إنه المسيو كوبيو!

– المسيو كوبيو؟

– نعم.. زوجك. إنه يصرخ على هذا النحو بلا انقطاع منذ يومين.. وهو كذلك يرقص!

يا للسماء! وما أبشع ما رأت! لقد وقفت مذهولة بباب الغرفة المبطنة الجدران والسقف والأرضية بالجلد، وعلى الأرض حشيتان من القش إحداهما فوق الأخرى. وفي الغرفة كان كوبيو يتواثب في رقصة تشبه رقصة السكارى في الأعياد.. رقصة الكورتيل التي يؤدونها في الشوارع. وكانت ملابسه مهلهلة، وشعره متطايرًا، منتصبًا، وساقاه تضربان الهواء، وذراعاه تطوحان في كل اتجاه، وهو يقفز حينًا إلى النافذة، ثم يهبط إلى الأرضية، ويصطدم جنبًا بهذا الجدار، ثم يرتد إلى الجدار المواجه له، ويثب إلى السقف ليهبط على ركبتيه، ويدور حول نفسه، ثم يترنح قليلًا، ويعود إلى تكرار هذه كله، وصراخه لا يهدأ لحظة واحدة، وكأن حيوان يعرف مصيره وهو يقاد إلى المذبح!

وقالت جرفيز في ذهول عميق:

– يا إله السماء؟ ماذا جرى له.. ماذا جرى له؟

وكان ثمة طبيب شاب متورد الوجه، ضخم الجسم، جالسًا إلى مكتب صغير أمام الغرفة يدون ملاحظاته بهدوء تام، وكأنه أحد العلماء الذين يجرون تجاربهم على الحشرات تحت المجهر.

وقال الطبيب ردًّا عليها:

– يمكنك أن تبقي هنا بضع لحظات أخرى.. وكذلك يمكنك أن تتحدثي إليه.. ولكنه لن يعرفك.. إن هذه الحالة تهمنا جدًّا، لأنها نموذج كامل للحالة الأخيرة التي يصل إليها المدمن العائد.

وكان يبدو على كوبيو، في الواقع، أنه لا يعرف زوجته، أو حتى يراها. وكانت هي لم تره جيدًا عندما وقفت في اللحظة الأولى أمام باب الغرفة المحصن بالقضبان الحديدية. ولكن عندما أمعنت النظر إلى وجهه، أبت أن تصدق عينيها. أيمكن أن يكون هذا وجه آدمي؟ إنها ما كانت لتتعرف عليه لولا بعض السمات الأخرى التي لا تخطئ في الدلالة عليه. لقد كانت عيناه بلون الدم، وشفتاه متهدلين متورمتين، ووجنتاه منكمشتين كوجه حيوان عجيب، وأنفه متورمًا وبشرته حارة يتصاعد منها البخار، ويتألق عليها العرق الغزير، وأنفاسه لاهثة كلما توقف برهة وجيزة عن الصراخ. وكانت ملامحه كلها تنم عن شعوره بألآم مبرحة إلى حد العذاب.

وعادت جرفيز تقول للطبيب الشاب الذي كان ينقر بإصبعه نغمة لأغنية معروفة على سطح المكتب:

– يبدو أن الأمر خطير هذه المرة يا سيدي!

وأومأ الطبيب برأسه دون أن يجيب. وعندئذ عادت جرفيز تقول متسائلة:

– إنه يتمتم بكلمات لنفسه.. فماذا تراه يقول؟

فغمغم الطبيب الشاب قائلًا:

– إنه يتحدث عن أشياء وأشباح يراها. اهدئي. دعيني أسمع ما يقول!

وكان كوبيو يتحدث أثناء صراخه وكأنما يوجد الحديث إلى نفسه:.. شيء جميل!. عظيم جدًّا.. آه هذه هي الكئوس والموسيقى. ما أعظم هذا. ولكنهم يحطمون الكئوس. حسنًا. ولكن ما هذه النيران. هذه الصواريخ.

بالونات اللهيب في الهواء. ما أكثر هذه المصابيح تحت الأشجار. إن الماء هنا كثير. في النافورات والينابيع. والمساقط. آه ما أجمل صوت الماء في المساقط. إنه موسيقى.

ثم يتوقف لحظة ويرهف أذنه كأنه ينصت إلى خرير المياه في المساقط، وفجأة يعود إلى وثباته وصراخه، لكي يتحدث مرة أخرى قائلًا:

– أيها الملاعين. أيها القتلة. إنني على حذر منكم. إنكم تريدون مني أن أقتل نفسي. تريدون أن أشرب. وأشرب حتى أموت من فرط الشرب. آه. بل تريدون أن ألقي بنفسي في كل هذه المياه. ولكن لا، لا. لن أفعل. إنني أهرب منكم. وسوف أظل هاربًا إلى الأبد.

ويقوم كوبيو بحركات الإنسان الذي يحاول أن يقفز من فوق الجداول والقنوات ومساقط المياه حتى لا يقع فيها. ثم يعود صارخًا قائلًا:

– هذا مستحيل. مستحيل. حتى الأطباء. إن القتلة السفاكين يغرونهم بي. يجعلونهم ضدي.

وقالت جرفيز للطبيب في النهاية:

– لسوف أنصرف يا سيدي. لن أستطيع أن أحتمل هذا المنظر لحظة أخرى.. طاب مساؤك.

وانصرفت بوجه شاحب، تاركة كوبيو يقفز من النافذة إلى الأرض، ومن الأرض إلى السقف، ومن هذا الجدار إلى الآخر، دون أن يكف لحظة واحدة عن الصراخ والهذيان.

وكانت طيلة هبوطها على السلم تسمع صراخ هذا الرجل الذي تزوجته يومًا لأنه يكره الخمر! يا للهول؟. أية لعنة تلك التي حلت عليه ودفعت به إلى إدمانها!ولما خرجت إلى الشارع. تنفست بارتياح. فما أجمل أن يخرج الإنسان إلى الدنيا. ويتنفس الهواء الطلق مرة أخرى!

وأمست حالة كوبيو الخطيرة موضع أحاديث وإشفاق سكان البيت والجيران جميعًا. وأخذ البواب بوش وزوجته يقدمان لجرفيز بعض الطعام ليسمعا منها مزيدًا من التفاصيل عن حالة كوبيو.. وزارتها أيضًا مدام لوريليو وبعض الجارات. وفتح الجميع أفواههن من فرط الدهشة وهم ينصتون إلى وصفها لحالة كوبيو. وقال بوش إنه عرف نجارًا دفعه الإدمان في أواخر أيامه إلى خلع ملابسه والرقص في الشارع ثلاث ساعات متوالية. أما الرقص والقفز والصراخ ثلاثة أيام فهذا شيء لا يكاد يصدقه أحد. وقالت لهم جرفيز إن الذي يأبى أن يصدق عليه أن يذهب إلى المصحة ويرى بنفسه.

وذهبت جرفيز في اليوم التالي لترى ماذا انتهى إليه أمر كوبيو، وكان ذهابها إليه بدافع الفضول لا الشفقة. ولم تكن بحاجة لأن تسأل عن أخباره حين سمعت، وهي في أسفل السلم صراخه المنطلق من غرفته بالطابق الأعلى. ومر بها المعاون الذي قادها إليه في اليوم السابق، ثم غمز لها بعينه كأنما يقول أن الحالة كما هي:

ومع هذا قالت له:

– ألم يطرأ عليه أي تغيير؟

فرد وهو ماض في طريقه:

–لا.. مطلقًا..

ومضت إلى باب الغرفة. ولكنها توقفت دون الدخول، لأنها رأت بداخلها رجلين، أحدهما الطبيب الشاب الذي رأته في اليوم السابق، والآخر كهل يحمل على صدره شارة وسام الشرف، وكان يبدو عليه بوضوح أنه مدير المصحة.

أما كوبيو فكان يتواثب في رقصته الخالدة بلا انقطاع. وكان صوته قد تحشرج وأصبح أقرب إلى صوت الحيوان المحتضر منه إلى صوت الإنسان، وكان العرق ينثال على جسده في قنوات.. وكان المسكين يستحم بعرقه، وكان البخار يتصاعد منه في تزايد، وازداد اتساع فمه من فرط الصراخ، وكانت الحشايا قد تمزقت وتطاير قشها؛ لكثرة قفزاته عليها.

لم يكن المنظر يسر أحدًا.. وقد سألت جرفيز نفسها مرتعدة لماذا جاءت لتتأكد من أنها لم تبالغ في وصف حالته للبواب بوش وزوجته؟ الواقع أنها لم تصف نصف الحقيقة عنه. إنها الآن تراه بإمعان وتسجل في ذهنها كل حركاته، وكذلك التقطت بعض العبارات المتبادلة بين الطبيب ومدير المصحة. وكان الأول يقدم للثاني تقرير كاملًا عن حالة المريض في الليلة السابقة. إنها حقًّا لم تفهم الكثير من حديثه، ولكنها أدركت، بوجه عام، أن كوبيو ظل على هذه الحالة من التواثب والصراخ طيلة الليل، والنهار، ولاحظ مدير المصحة وجودها، فسأل الطبيب عنها، فقال له إنها زوجة المريض. وعندئذ أخذ المدير يسألها كما لو كان وكيلًا للنيابة فقال:

– هل كان والد هذا الرجل مدمن خمر؟

ولم يسع جرفيز إلا أن تجيب بالحقيقة قائلة:

– نعم يا سيدي.. ولقد مات حين سقط من فوق سقف بيت وهو مخمور..

وأومأ المدير برأسه وقال:

– وأمه.. هل كانت مدمنة شراب؟

فهتفت جرفيز وقالت:

– إنها كأية امرأة أخرى.. تشرب بين الحين والآخر.. كانت تحب الخمر ولكنها لم تدمنها.. إنه ينحدر من أسرة طيبة. وقد مات له أخ بداء التشنج.

وركز المدير عينيه النفاذتين إلى وجه جرفيز وقال:

– وأنت.. هل تدمنين الخمر؟

وأقسمت له أنها ليست مدمنة، وأنها تشرب قليلًا بين الحين والآخر، وفي بعض المناسبات. ولكنه قال لها:

– إن القليل يؤدي إلى الكثير.. والشرب في المناسبات يؤدي إلى الإدمان.. ويحسن أن تكوني على حذر.. ها أنت ترين المصير الذي ينتهي إليه المدمن.. كل مدمن.

ووقفت متسمرة في مكانها. واستدار المدير بظهره إليها، وراح يرقب كوبيو بإمعان شديد غير حافل بالقش المتطاير على ملابسه. وكانت التشنجات العصبية قد سرت في ذراعي كوبيو وساقيه... وأصبح عاجزًا عن السيطرة عليهما جميعًا.. وبدا المسكين كأن هناك مخلوقًا خفيًّا قد شد أطرافه

إلى خيوط غير منظورة، وراح يحركها كيف يشاء دون أن يقوى كوبيو على مقاومته. وأخذت التشنجات تنتشر تدريجيًّا في جسمه، وكانت تستمر بضع ثوان ثم تتوقف..

ثم تبدأ من جديد، مثل الرعدة التي تسري في جسد كلب ضال في ليلة شتاء أمام باب مغلق. ولم تلبث منطقة البطن والأكتاف أن أخذت في الارتعاد كأنها الماء في حالة الغليان.

وفي خلال هذا كله كان صراخ كوبيو قد تحول إلى أنات عالية، وكان الواضح أنه يتعذب أكثر مما كان في اليوم السابق. ذلك أن توجعاته غير المفهومة كانت تدل على معاناته من جميع الأمراض.. إن آلاف الإبر تنفذ في جسمه.. إن شيئًا ثقيلًا يجثم على صدره.. إن مجموعة من الأفاعي الباردة تزحف على ساقيه وتنشب أنيابها في فخذيه.. وهناك أيضًا وحوش تنهش كتفيه وظهره بمخالبها.

وكان يردد باستمرار قائلًا:

– إنني عطشان.. عطشان.. أغيثوني.

وتناول الطبيب إناء شراب الليمون من رف، وقدمه إليه ليشرب منه، وأمسك كوبيو بالإناء بكلتا يديه وجرع منه بنهم، ولكنه لم يلبث أن بصق الجرعة في اشمئزاز وسخط وهو يقول:

– اللعنة عليكم.. إن هذا براندي.. إنه يزيدني عطشًا.

وفي هذه المرة قدم الطبيب إليه زجاجة ماء بارد، ولكن كوبيو لفظ جرعة الماء، وهو يصيح غاضبًا:

– إنه براندي أيضًا.. إن عطشي يزداد!

وكان يشعر منذ اليوم السابق أن كل شيء يشربه ليس إلا خمر البراندي التي تنزلق إلى جوفه كماء النار، وحتى الحساء كان يحسبه خمر البراندي.. وكان يهتم الجميع بالعمل على قتله عمدًا للخلاص منه، وكانت زنزانته مفعمة برائحة الكبريت المتصاعدة من عرقه. وكان هو يتهم المسئولين في المصحة بأنهم ينثرون مسحوق الكبريت تحت أنفه!

وظل الطبيب واقفًا ينصت بإمعان إلى هذيان كوبيو الذي بدأ يتحدث عن رؤيته للأشباح في ضوء النهار، إنه يرى في غرفته نسيج عنكبوت ضخم، وإن خيوط هذا النسيج لتشبه حبال السفن، إن هذا النسيج ليتحول إلى شباك.. وفي داخل الشباك كرات تتواثب.. كرات سوداء تصعد وتهبط مثل كرات الحاوي.. وتكبر وصغر لكي تغيظه وتزعجه.. ثم يصيح فجأة:

– الجرذان.. انظروا إلى الجرذان..

لقد تحولت الكرات إلى جرذان.. هذه الحيوانات القذرة تتضخم وتقفز من الشبكة إلى المراتب ثم تتبخر. وهناك أيضًا قرد يخرج من الجدار، ثم يعود إلى الجدار، وفي كل مرة يزداد قربًا منه – من كوبيو – ولهذا فهو ينكمش عنه حتى لا يقضم أنفه. ويتغير المنظر فجأة، ويخيل إليه أن الجدران تترنح.. ومن ثم يصيح في فزع:

– آه. إنكم تهزونني.. إنكم تريدون أن تدفنوني حيًّا! لن يهمني هذا.

آه.. هناك على الأرض. نعم.. دقوا الأجراس.. أيها الرهبان الملاعين، إنكم ترفعون نغمات الأرغن حتى لا يسمعني الحراس. إن لديهم مدفعًا وراء الجدران.. أطلقوا النيران أيها الجبناء.. أطلقوا النيران.. إن السمار كلها مشتعلة بالنيران.. النيران الحمراء.. والنيران الخضراء.. والنيران الصفراء.. أغيثوني.. أغيثوني!

وتحولت صرخاته إلى حشرجة في حلقة. وراح يغمغم بكلمات غامضة وقد انتشر الزبد حول شفتيه، وسال اللعاب على ذقنه. وأخيرًا استدار مدير المصحة إلى الطبيب الشاب وقال له:

– ألا تزال حرارته مرتفعة كالأمس؟

– نعم يا سيدي.

وظل المدير يحملق برهة في كوبيو، ثم هز كتفيه وقال للطبيب الشاب:

– استمروا على نفس العلاج. حساء ولبن وليمونادة بلا سكر ولا تتركه لحظة. وإذا حدث شيء فاستدعني.

ولما انصرف، حاولت جرفيز أن تلحق به لتسأله إن كان هناك أمل في علاج كوبيو هذه المرة، ولكنه كان مسرعًا، فلم تستطع أن تلحق به. ومن ثم وقفت مترددة لا تدري هل تعود إلى زنزانه زوجها أو تنصرف. ولما سمعته يصرخ مرة أخرى بأن الليمونادة لها رائحة البراندي، قررت الانصراف.

ورأت البواب بوش وزوجته في انتظارها عند الباب.. وما إن رأياها حتى أدخلاها في غرفتهما حيث كانت بعض الجارات في انتظارها أيضًا! هل كوبيو

كما هو؟ نعم عجبًا! إن بوش لا يكاد يصدق لقد راهن بزجاجة خمر على أن كوبيو لا يمكن أن يعيش حتى المساء. وصاح الجميع يطالبونه بإحضار زجاجة الخمر.. وقالت مدام لوريليو أن أخاها ظل على هذه الحالة إذن أكثر من ست وثلاثين ساعة.. وهذا رقم قياسي لقوة الاحتمال البشري. وإلا فهل سمع أحد أن رجلًا استطاع أن يتواثب ويصرخ كل هذه المدة بلا انقطاع.

* * *

وفي اليوم التالي، رآها آل بوش وهي في طريقها لزيارة زوجها فتمنيا لها حظًّا أحسن. ولكنها فوجئت بدهاليز وممرات المصحة مشحونة الجو بصرخات كوبيو الرهيبة. وقبل أن تضع يدها على درابزين السلم أثناء صعودها إليه، سمعته يعوي قائلًا:

– انظروا إلى جيوش البق.. إنها ستلتهمني.. ولكني أقوى منها.. إليكم عنها أيها الملاعين.

ولما وصلت إلى باب الغرفة ترددت برهة. لقد بدا لها أنه يحارب جيوشًا رهيبة من البق. ولما اقتربت من الباب ذي القضبان الحديدية فوجئت بمنظر لا تنساه.. إن كوبيو يطوح بذراعيه في كل مكان كأنما يبعد عنه الحشرات الزاحفة عليه. وكان يضرب بيديه نفسه والجدران والأرضية، والهواء ثم يفتح النافذة، ويحاول أن يختبئ ثم يتحفز للمقاومة، ويصيح متحديًا عددًا كبيرًا من الأعداء. ثم رأته جرفيز وهو يتوهم نفسه فوق سطح بيت بنيت عليه أنابيب الماء والغاز.. وكان يصيح وهو يقوم بدور الشخص المعلق في سلاقة، طالبًا أن يسرع إليه بهذه الأداة أو تلك من أدوات العمل، وفجأة يتخيل أن في

بطنه آلة بخارية، ومن ثم يفتح فمه ليخرج منه البخار.. ويظل ينفخ وينفخ – مقلدًا صوت الألة – حتى تنقطع أنفاسه، وأخيرًا يقول:

– هاللو.. إنهم الزملاء من شوسيه كلينا فكورت، لكنهم متنكرون في جلود الدببة.

ثم يقبع وراء النافذة في سمت الذي يرقب موكبًا عجيبًا في الشارع ويصيح:

– ما أعجب هذا الموكب.. إنه موكب السباع والفهود والنمور، إنها جميعًا تضحك!! وهناك أيضًا غلمان متنكرون في شكل كلاب وقطط. وهناك كليمانس.. إنها ترفع شعرها بالريش.. عليها اللعنة.. إنها تخلع ملابسها وتقف عارية.. أوه.. تعالي إلي يا بطتي.. أيها الشرطة الملاعين.. دعوها وشأنها.. لا تطلقوا النار عليها.

وارتفع صوته بالخوف، وحنى رأسه تحت حافلة النافذة حتى لا يصاب برصاصة. وعاد يقول صارخًا:

– لا تطلقوا النيران.. لا تطلقوا النيران..

وتتساقط البيوت.. ويقلد هو صوت تساقطها.. ويختفي كل شيء.. ولكن لم يعد لديه وقت ليتنفس.. لأن هناك مواكب أخرى تتقدم وبسرعة. وتستبد به رغباته عارمة للحديث فيمتلئ فمه بالألفاظ، وتتناثر هذه الألفاظ كطلقات الرصاص من صدر يعلو ويهبط، وبصوت يزداد ارتفاعًا:

– هاللو.. أهذه أنت؟ طاب يومك.. لا داعي للغضب اليوم.. لا، لا.. لا تدعيني آكل شعرك.

ووضع يديه على عينيه، ثم راح يبعد عن فمه الشعر، وهنا قال له الطبيب الشاب:

– من ترى؟

– زوجتي طبعًا.. إنها جرفيز.

والتفت إلى الجدار موليًا ظهره لجرفيز التي جفلت عند سماعها اسمها يتردد على لسانه.. وعاد هو يقول:

– لا.. لا تخنقوني. لا تقيدوني.. آه.. إنك تبدين جميلة، هذا الثوب! من أين لك ثمنه أيتها البغية! لا شك أنك الآن من بنات الهوى.. آه.. من هذا. انظري... اللعنة... إنه هو مرة أخرى.

وعاد الطبيب يقول مكررًا:

– من ترى الآن؟

– القبعاتي.. القبعاتي لانتيير..

سأل الطبيب جرفيز عن لانتيير هذا، ولكنها ارتبكت وتلعثمت ولم تستطع أن تجيب. وكان اسم لانتيير قد أعاد إليها في لحظة كل عذاب حياتها معه ومع هذا العربيد!

وعاد كوبيو يصرخ قائلًا وهو يهدد بقبضته:

– هلم نصفي ما بيننا من حساب أيها الوغد. لسوف أمسحك من وجه الأرض تمامًا. إنك تريد أن تهرب. أليس كذلك؟ تريد أن تهرب بزوجتي لكي تجعلني أضحوكة الجميع. لسوف أخنقك نعم.. نعم.. لسوف أضع القفاز في يدي لم أعد أهتم بأمثالك.. خذ هذه.. وهذه.. وهذه..

وراح يضرب الهواء بقبضته. ثم استبد به غضب هائل، وقبع بجوار الجدار، وقد خيل إليه أن هناك من يريد أن يهاجمه من الخلف، وفجأة استدار وراح يهاجم الجدار بعنف، ثم اندفع يثب في الهواء من ركن إلى ركن، مصطدمًا ببطنه، أو بكتفه أو بفخذه، ثم يسقط متدحرجًا، ويصرخ كأن عظامه تتكسر، ولحمه يتمزق، ويرسل عبارات التهديد وهو يحاول أن يقاوم ذلك العدو الخفي، ثم ينكمش كمن يتلقى الضربات من جميع الجهات. وينتهي الأمر إلى الاستسلام كطفل مغلوب على أمره، ثم يردد قائلًا:

– أغيثوني.. إنهم سيقتلونني.. إنهم يقطعون ساقي.. وذراعي ويفتحون بطني.. الدماء تنزف.. الدماء.. النجدة.. النجدة!

ويتصبب بالعرق الغزير، وينتصب شعره، ويسقط على الحشايا التي تتعثر فيها قدمه وتشتبك. وتصيح جرفيز قائلة:

– أغثه يا سيدي الطبيب.. إنه سيموت.

ويمضي الطبيب، ويخلص قدم كوبيو من الحشية. وفي تلك اللحظة، يحضر مدير المصحة ومعه رجلان: أحدهما نحيل والآخر بدين. وانحنى الثلاثة على كوبيو يفحصونه بإمعان ويتبادلون حديثًا سريعًا. وكانوا قد عروا الجزء الأعلى من جسمه، وشرعوا يفحصون التشنجات التي شاعت في كل جزء

من الجسم في ذلك الحين. وكان المسكين يبدو كإنسان ضعيف تدغدغه مئات من الأيدي، فيتلوى، ويتراقص دون أن يقوى على النهوض. وبعد برهة من التشنجات العنيفة المتوالية، همدت حركته تمامًا.. وسكن جسمه.

وحملقت جرفيز في وجه كوبيو في رعب.. لقد كان يبدو ملتويًا، بعيد الشبه عن وجوه البشر، وكأنه وجه ميت لفظ أنفاسه وهو تحت وطأة كابوس رهيب. ولما رأت الأطباء يضعون أيديهم على صدره، أرادت هي أيضًا أن تتحسس هذا الصدر.. وتقدمت خطوة ووضعت يدها على كتف زوجها. يا للهول.. ماذا يجرى تحت البشرة! إن التشنجات تبدو كأنها مجرى مائي ينثال تحت البشرة.. كأنها أيدي الدمار تحطم كل خلجة في ذلك الجسد المعذب، لا شك أن الخمر التي تحطم الجسد كأنها رءوس المعاول. إن الجسم كله مشبع بها.. وإن عليها أن تتم رسالتها الشيطانية مع هذا الجسم الذي عب منها بإسراف.

وانصرف المدير مع الزائرين. وبقيت جرفيز نحو ساعة مع الطبيب المعالج، وأخيرًا قالت له:

– سيدي.. سيدي.. إنه ميت!

ولكن الطبيب هز رأسه وهو ينظر إلى قدمي كوبيو المختلجتين، وفجأة توقفت حركتهما تمامًا.. وهنا قال لها.

– الآن يمكن القول إنه انتهى.

الموت فقط هو الذي قضى على اختلاج القدمين.

وألقت جرفيز نظرة أخيرة على الرجل الذي تزوجته وعاشرته أكثر من عشرين عامًا، ثم حنت رأسها، واستدارت بهدوء، وانصرفت..

وظلت في حالة من الذهول وهي تقطع الطريق بين المصحة، وبين الأحزان.. وكانت كلما تقدمت خطوة، تشعر كأنها كالشاة التي تقاد إلى المجزر..

أي مصير ينتظرها.. حقًّا لقد استراح كوبيو من حياة كلها العناء والعبث والخمر.. استراح وأراحها.. ولكن.. ماذا ينتظرها هي؟

وشعرت في تلك اللحظة بيد توضع على كتفها.. فخلجت واستدارت لترى كوجيت الحداد، يضع ذراعه في ذراعها، وهو يهمس:

– كنت في المصحة منذ لحظات.. وقيل لي إنك انصرفت، فأسرعت للحاق بك..

وأرادت أن تقول شيئًا، ولكنها لم تستطع.. ومن ثم اكتفت بالنظر برهة إلى عينيه البريئتين.. وخيل إليها أنها ترى في أعماقها آمالها التي ماتت، تبعث من جديد.

الفهرس